ممر المَشاهد

اسم الكتاب:	ممر المشاهد
اسم الكاتب:	سارة محمد الميري
تصميم الغلاف:	فريق شغف
الإخراج الفنيّ:	جمال عبدالرحيم
الطبعة:	الأولى
رقم الإيداع:	2525 / 2023
الترقيم الدولي:	978-977-86530-9-0

Gmail	almaktaba79@gmail.com
facebook	Facebook.com/arabiclibrary2017
	01030365801 – 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

ممر المَشاهد

رواية

سارة محمد الميري

للنشر والتوزيع
Arabic Library

إهداء

إلى كل من يعشق الخيال، ويهوى تفاصيل الورق، إلى كل من قال لي يومًا كلمةً لطيفةً ربَّتتْ على قلبي، وقبل كل هؤلاء سيكون إهدائي إلى والديّ وأخي الّذين قاموا بتعليمي كيف يكون العطاء.

المقدمة

استدعتني هذه المعتوهة لأكتبَ مقدمة الكتاب، إني لأتساءل كيف تفكر هذه الفتاة؟! تأكدَت شكوكي الآن.. هذه الفتاة تحمل داخل جمجمتها حذاءً مستعملًا لا عقلًا، طوال أحداث الرواية وهي تمسح بمشاعري بلاطَ منزلها ومنازل الجيران، والآن تطلب مني كتابة مقدمة الرواية! على كل حالٍ يجب أن أفعل في نهاية الأمر أنا شخصيتها والقلم -للأسف الشديد- بين يديها، لا يأمن المرء غضب هذه الفتاة المتقلبة؛ فربما تقتلني تحت عجلات سيارة طائشة! على كلٍ لقد قطعَت على نفسها وعدًا -وميزتها الوحيدة أنها تفي بوعودها- أنها ستكتب المقدمة كما كتبتُ أنا لا حرف يزيد أو ينقص، ولهذا أريد أولًا أن أعبّر عن سعادتي الجمّة بما سيُفعل في سَحَر عبد الكريم؛ لأنها بشكلٍ آو بآخر تمثل صورة مشابهة لسارة محمد الميري، لم تعترف هي أبدًا بهذه الحقيقة لنفسها، ولكنني رأيتها.. سمعتُ أفكارها وهي تضع نفسها بيننا وتقحم بعض صفاتها بين السطور؛ لذلك كانت تتألم لمعاناة بطلتها، هي التي لم تفعل ذلك أبدًا مع أحد منا، أسمع إحدى أفكارها تخبرني أن هذه مقدمة رواية وليس.. ليس ماذا؟ حسنًا سأعتذر عن الإكمال وأكتفي بهذا القدر؛ لأن هناك مشاجرة ستبدأ الآن بيني وبينها، ألقاكم بين السطور.

رامس فهد

يهدم الروائي بيت حياته كي يصنع من لبناته بيتًا جديدًا: بيت روايته.

ميلان كونديرا

(الفصل الأول)

رائحة البخور تفوح من مكان ما لتداعبَ أنفها في مكر، بشكلٍ أو بآخر ترتبط الذكريات في عقلها بالروائح، يومها الأخير في المدرسة، معلمة قصيرة بدَت جذور شعرها السوداء فوق أطرافه الشقراء، تدور عليهم ليوقّعوا على أداء الاختبار، تأرجحَت مشاعرها بين السعادة والرهبة، تأمّلَت الورقة.. هناك اسمها، وفي صف أفقيّ تراصّت أسماء المواد التي اختبرتها وقد ظهر توقيعها أمام كل مادة، خانة أخيرة تنتظر التوقيع بيدٍ متأرجحة فعلَتْها، هكذا قد انتهى فصلٌ من حياتها ليبدأ آخر،

على باب قاعة الاختبار وقفَت تتبادل الإجابات، شَعرٌ مجعّد قاتم السواد يصل إلى منتصف ظهرها معقوص بربطة صفراء اللون، غمازتيها تظهرُان بوضوح مع ابتسامتها الواسعة، شامة كبيرة تتربع على خدها الأيسر، عينان بنيتان واسعتان ورثتهما من أبيها وبشرة خمرية تلعب دورا جيدا في إبراز جمالها، تتبادل الإجابات مع "تبارك" -صديقتها المقربة-، خصلات شعر قاتمة السواد يظهر التقصف على نهايتها، بابتسامة صادقة قالت "تبارك":

- بمرور هذه المادة بدون أخطاء نستطيع مناداتك بدكتور "سحر".

- أظنني سأنتظر النتيجة قبل السماح لكِ بذلك..

قطع حديثها صرخة تلك الفتاة الراكضة باتجاهها من آخر الممر، ارتمَت بين ذراعَي "سحر" المفتوحتين، ثم قالت:

- كان الامتحان سهلًا، لا أصدق.. لقد أنهينا الثانوية يا بنات!

قالت "تبارك" بصوتها الهادئ:

- كيف كانت إجابة الصح والخطأ؟

رفعت "فاطمة" كفها في وجه "تبارك" مع ابتسامتها الطفولية، فقالت "تبارك" بعدما تأملت الإجابات المخطوطة على الكف:

- إجابة السؤال الرابع صح! كيف هذا؟! لا لا أنا متأكدة كانت الإجابة خطأ.

ردت "فاطمة":

- لا.. أتذكر أنني راجعتُ هذه النقطة في الكتاب أمس، الإجابة صح ولا مجال للمناقشة.

قالت "سحر" في محاولة لمنع النقاش الوليد:

- صح أو خطأ لا يهم يا بنات، نصف درجة ستطير من إحداكما وسيقوم الحاسب الآلي بجبرِها.

ثم أردفت بحماس:

- إنه يومنا الأخير معًا.

تجاهلتاها تمامًا، تناولَت "تبارك" كتابًا كانت ألقته إحدى الفتيات بجانب مدخل القاعة قبل دخول الامتحان، فتحَت الكتاب على صفحة معينة، ثم دسته تحت عيني "فاطمة".

- انظري.. هذا هو السؤال بالنص وهذه إجابته.

صفعت "فاطمة" جبهتها، ثم قالت:

- لم أراجع صفحة الأسئلة هذه.

دفعتهما "سحر" باتجاه الدرج وهي تقول:

- ذهب الاختبار بخيره وشره، هيا إلى الأسفل.

*****

ضمت "تبارك" مرة أخيرة، وقبل أن تُسدِل غطاءها على وجهها نظرَت إلى ساحة المدرسة التي كانت شبه فارغة إلا من بعض الفتيات،

ومشرفَة جالسة تراقبهُنّ بوجهٍ عابس، تأمّلَت تلك النخلة الصغيرة النامية في الركن العُشبيّ والكراسي البيضاء المتناثرة بعشوائية، وقالت:

- أظن أننا سنفتقد المدرسة يا "تبارك".

- تكلّمي عن نفسك!

همَّت أن تتكلم، ولكن قاطعها صوتُ حارس المدرسة مناديًا في مكبر الصوت:

- "سحر عبد الكريم"، "سحر عبد الكريم"، هيا يا "سحر".

أشارت إليها "تبارك" ضاحكة:

- هيا يا "سحر".

- حسنًا.. هل لي بعناق أخير؟

ابتسمت "تبارك"، ثم فتحت ذراعيها تضمها، قامت المشرفة من على كرسيها وبخطوات سريعة اقترَبت منهما وهي تصيح:

- هيا يا فتاة، تتلكّعِين منذ عشر دقائق، جاءت سيارتك، ارتدِي عباءَتْكِ وغادري، لسنا في مقهى، لا مكان لقلة الأدب هذه هنا.

رمتها "سحر" بنظرة نارية وهمّت بالرد، أسكتتها يد "تبارك" التي أسدلَت الغطاء المرفوعَ على وجه "سحر"، ثم ناولتها حقيبتها في محاولة جادة لمنع أي اشتباك، خرجَت "سحر" تستشِيطُ غضبًا، أفكارها تصيح داخل عقلها "ربما هناك بعض السلوكيات شائعة بين صفوف البعض، ولكن لا يعطيها ذلك الحق بالتطاول، متى سيصفُّون نيتهم القذرة؟ أنا و"تبارك"! يكفي تفوقنا وحسن أخلاقنا الذي يعلمه الجميع".

بشيء من العسر وهي تخفّف إحدى طبقات غطاء وجهها الذي تفرضُه إدارة المدرسة تسنّى لها رؤية سيارة والدها الكحلية تقف أسفل شمس الظهيرة الحارقة، هشّ والدها لرؤيتها وانفرجَت أساريره.

- هاه؟ بشريني.. كيف كان الاختبار؟

- الحمد لله ولا خطأ.

- الحمد لله، مبارك يا ابنتي.

تأمّلَت شاردة الذهن طريق العودة، هذه هي مرتها الأخيرة التي ترى فيها هذا الطريق، بسرعة شديدة مرَّت ذكرياتها أمام عينيها، رداءُ المدرسة -التنّورة والقميص الوردي-، قاعة الدراسة وشجارها الدائم على إطفاء جهاز التبريد في بدايات الشتاء، الفسحة وتهريبهم لصوان الطعام بعيدًا عن أعين إدارة المدرسة، صديقاتها وصوت ضحكها المجلجل في حصص الفراغ، تصفيفها لشعرها بعناية في الحفلات مع وضع مستحضرات التجميل التي كانت تسمح بها الإدارة فقط في حفلات التكريم، مدرستها التي كانت للإناث فقط بما في ذلك المعلمات وعاملات النظافة هذا هو وضع هذه البلاد، الوضع الذي كان يشعرها براحة كبيرة، مرّرَت عينيها على أسماء المطاعم والمتاجر كأنها تودّع كل شيء، فتلك أيامها الأخيرة في هذه البلاد، حركت رأسها تنفض غبار الأفكار، نظرت الى أبيها ثم تساءلت:

- أبي، أين آسر؟

- تركتُه في المدرسة يلعب كرة القدم مع زملائه، آه صحيح.. سنتأخر اليوم في العودة، لديّ إشراف مكان أحد زملائي، عليّ الانتظار حتى انصراف آخر طالب.

دلفَت إلى الشقة الفارغة، خلعَت عباءتها وألقتها على مرتبة المجلس الأرضي، ثم شغّلَت جهاز التبريد وجلسَت أمامه، وفي حماس فتحت الهدايا التي وُجّهَت لها من صديقاتها، زجاجة عطر ثمينة، مرآة نُقِشَ عليها اسمها، عُقد بسيط ذهبي اللون، تأمّلَت الهدايا بافتتان، ثم أمسكَت

هاتفها وتمدّدَت على المجلس الأرضي، بصورة آلية حذفَت جميع الصور المحفوظة التي كانت تتعلق بالمنهج، ظهرت رسالة..

"كيف كان الاختبار؟"

- بلا أخطاء، وهذا المعتاد مني.

أغلقت المحادثة، ثم فتحَتْها من جديد لتكتب:

- لقد أنهيتُ الثانوية بينما أنتَ لم تبدأ بعد اختبارات.

"ما رأيكِ أن تذهبي للمطبخ؟ مكانك الأزليّ"

- اليوم الطعام جاهز بمناسبة إنهائي للاختبارات، وسأخرج ليلًا للاحتفال مع صديقاتي، أظن أنّ عليكَ العودة لدراسة حساب المثلثات.

أغلقَت المحادثة، ثم فصلَت توصيل الإنترنت عن جهازها، فرَدَت شعرها وبحركة تنمّ عن الراحة دلّكَت فروة رأسها، فتحت إحدى الملفات.. صورة كتاب على غلافه فتاة كُحليّة الشعر، صاحت بحماس:

- الآن يمكنني القراءة دون تأنيب ضمير.

*****

عشرة أشخاص يكوّنون دائرة في مركزها شمعة كبيرة الحجم، ملامحهم غير واضحة، كانت تراقب المشهد من الأعلى في ظلام تام يقطعُه ضوء الشمعة القادم من الأسفل، تستمعُ إلى صوت أحدهم الغليظ يستمر بالعد:

- ٩٧, ٩٨, ٩٩.

صَمت طويلًا، وبعدها صدَحَ صوتُه:

- ١٠٠.

موجة رياح نقلَتْها إلى الأسفل، في مركز الدائرة وقفَت، تأمّلَت ملامحهم على ضوء الشمعة الباهت، كانت تدرك أنها تعرفهم، تعرفهم

ولكنها ناسية في هذه اللحظة من هُم، أعينُهم مغمَضَة وجلستهم ثابتة، فتحوا أعينَهم جميعًا باستثناء صاحب الصوت، اتجهَت أعينُهم إليه، دقائق ثم فتح عينيه ليقول:

- هناك خائنان، الدال تتربّع آخر اسم أحدهما كالملكة على العرش، الآخر عيناه تشرقان كأنهما شمس الظهيرة.

أغمض عينيه وقطب جبينه ثوان، ثم قال:

- كلاهما يريد المتعة، وقد كُتب لهما ما يريدانه.

صمت لثوانٍ، ثم استمر:

- أحدهما مفردٌ من جمع، والآخر..

استيقظَتْ ويدُ "آسر" تهزّها، هاتفها ملقى على بطنها ويدها فوقه.

- استيقظي لتأكلي.

*****

في دورة المياه وقفَت أمام المرآة الكبيرة التي تمتدّ خلف صنابير المياه، "مقهى القهوة الخضراء" على غرار مدرستها كان المقهى مخصّصًا للنساء فقط، نادلات، عاملات، لا مجال لدخول الرجال، غسلَت يدَيها، ثم دارت يمنة ويسرة أمام المرآة لتتأكد من مظهر شعرها، دلفَت فتاةٌ من الباب ثم وقفت إلى جانبها، أخرجَت الفتاة أحمر شفاهٍ من الحقيبة، وبحذر مررته على شفتيها، ثم قالت مخاطبة "سحر":

- تحتفلون بتخرجكم؟

نظرت لها "سحر" من خلال المرآة، صوت أفكارها يهمس "تضع المساحيق حتى كادَت أن تخفي ملامحها"، لوهلة شعرت أن هذه الفتاة مألوفة، ملابسها التي لا تلائم المكان.. حجابها، "لا أحد يرتدي الحجاب

داخل مقهى مخصّص للنساء، ليست من عاداتهن هنا"، ابتسمت "سحر" ثم قالت:

- نعم، تخرُّجنا من الثانوية.

- لا تبدين من أهل البلد؟

- نعم أنا كذلك، أنا مصرية.

- تنوين دراسة الطب، لا أظنّه قرارًا حكيمًا، أؤكد لكِ عدم وصولِك.

اختفت ابتسامة "سحر"، ثم قالت:

- من أين لكِ العلمُ بنيّتي؟ تتلصّصين على أحاديثنا!

- تؤ تؤ تؤ.. لو أمعَنْتِ التركيز لتذكرتِ أنّكِ لم تتحدثي مطلقًا مع صديقاتِك بالخارج عن نيّة دراستك الجامعية.

التفتَتْ الفتاة إلى "سحر"، ثم قالت لها:

- هل تحبّين أن أريكِ مستقبلك؟

ردت "سحر" في صوت أقرب إلى الصراخ:

- ربما من مصلحتك أن أخرجَ الآن، لا أريد أن أمسحَ بكرامتكِ بلاط الأرضية.

أمسكتها الفتاة من يدها قبل أن تغادر، نظرت في عينيها مباشرة، ثم قالت:

- أنصتي إليّ.

أصابَتْها الرهبة من نظرات الفتاة، إنها تعرف هذه الفتاة تعرفها ولكن ذاكرتها تتخلَّى عنها، وجدَت نفسها تقول في هدوء:

- كَذِب المنجّمون.

- من بين كذبِهم تبقى هناك حقيقة واحدة، تعلمِين الحديث.. مئة كذبة وحقيقة واحدة.*

من دون أن تنتظر ردًا وضعَت الفتاة كفَّها الأيمن على كلتا عيني "سحر"، مع برودة كف الفتاة بدأت صورٌ تتشكّل، ترى "سحر" نفسها في بيتها في مصر.. أمها ثم أباها، في ركن غرفتها ترى نفسها تبكي، وهناك من يقف أمامها.. من؟ إنها لا تتبين الملامح، منزل.. شارع.. مدرّج.. "أبرار" تضحك ثم تضمها، "مازن" يتشاجر، صور سريعة تمر، بالأحرى القادم من حياتها يُعرَض في بضع ثوان، ترى نفسها داخل حجرة واسعة، فيها سريران متوازيان بينهما مساحة فارغة، شرفة وُضِع على بابها حاجز ليمنع الدخول، ترى نفسها تزيل الحاجز، ثم تدلف وتقف على سور الشرفة، دموعٌ تُذرَف على خدّها، صوت يحثُّها من الخلف، أخيرًا تقفز.

أزالَت الفتاة كفها ثم ابتسمت، وأمام نظرات "سحر" المضطربة وضعت أحمر الشفاه في حقيبتها ثم خرجت، ثوانٌ بقيت فيها "سحر" تحدّق إلى الأرض ثم هرعَت إلى الخارج، كان الممر فارغًا تمامًا إلا من عاملة تمسح الأرضية، "لم يخرج أحد من دورة المياه قبل ثوان.. طبعًا، متأكدة يا آنسة". عادت إلى صديقاتها شاردة الذهن، جلسَت على الأريكة، ثم همست لنفسها:

- ما كان هذا؟!

---

*سَأَلَ أُنَاسٌ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ عَنِ الكُهَّانِ؟ فَقالَ لهمْ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: لَيْسُوا بشيءٍ قالوا: يا رَسولَ اللهِ، فإنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكونُ حَقًّا، قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: تِلكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحق يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا في أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِن مِئَةِ كَذْبَةٍ.

(الفصل الثاني)

رائحة القهوة العربية تفوح، ترتبط هذه الرائحة في ذاكرتها بالفصل الدراسي وحصص الفراغ، كان الفتيات يتفنّنّ في تهريب القهوة إلى داخل الفصل، صبّت لنفسها فنجانًا من الدلة* التي أمامها ثم تذوقته، "مُرّة كأنها وسيلة تعذيب"، "ورغم ذلك تحبينها".. أفكارها تتحاور داخل رأسها.

شغّلت التلفاز ثم قضمَت من الشوكولاتة وبعدها رشفت القهوة، تذكرت "تبارك" وهي تخبرها عن عادات بعض مناطق السعودية فيما يخص تقديم القهوة العربية للضيف "ينبغي ألّا يُملَأ الفنجان إلى آخره، يكفي أن يكون أقل من المنتصف، إذا مُلئ على آخره تعتبر وسيلة طرد غير مباشرة للضيف، هذه عادات أهل نجد، أما أهل الجنوب فيملؤونه على آخره، ولا يمثّل الموضوع لهم إهانة"، رنّت في أذنها كلمات "تبارك"؛ فتبسّمَت ورشفت من القهوة بنَهَم، سمعَت صوت خربشة فانتفضت، فكرت "هل هو فأر؟"، تكرر الصوت من جديد؛ فأمسكَت هاتفها واتخذت ركنًا في فزع، "هل هو لص؟"، أقسَى كوابيسها أن يهامجمها لص وهي وحيدة، فكّرَت في إمكانياتها المتاحة للهرب، "سحر، لا تكوني سخيفة، لصٌّ يأتي في الواحدة ظهرًا!" "دائمًا الفزع جزء من...".

- مرحبا!

- اععععععع.

وجهُ شابٍ ظهر أمامها؛ فألقت فنجان القهوة على ملابسه وصرخت بقوة، ثم ركضَت باتجاه الباب، حاوطَ خصرَها بذراعيه يمنعها ثم كمّم فمها بيده، تحرّكَت بقوة محاولة التملص.

*الدلة: الإبريق الذي توضع فيه القهوة العربية.

- شششش اهدئِي اهدئي.. لستُ هنا لأذيّتك.

زادت حركتها؛ فصرخ:

- "سحر"، قلت اهدئي، لو أردتُ إيذاءَكِ لفعلتُ ذلك الآن.

أمامها كانت حروف زرقاء تأتي من اللامكان لتتشكّل، تصبّ في قالب معين، قدمين ثم جذع رأسٍ وذراعين، وقف أمامها بعينيه البنيتين وشعره فاحم السواد، ثوان ثم قال بثبات:

- "سحر" اهدئي.

سكنت حركتها بين يدَي مقيّدها واتسعَت عيناها، حملها مقيّدُها ثم أجلسها على مرتبة المجلس الأرضي برفق، نظر إليها ثم ابتسم، بحروف ملعثمة نطقَت:

- مَـ.. من أنتم؟

تكلم الشاب الذي كان يقيدها وهو يتناول فنجان القهوة الملقى أرضًا:

- أنا "غيث".

- وأنا "رامس".

أكمل "غيث" وهو يصبّ لنفسه القهوة في الفنجان:

- أظنُّكِ تعرفيننا يا "سحر".

نطق "رامس" بصوته الرزين:

- نحن شخصياتك.

نقلَت عينَيْها بينهما في نظرات مذعورة، ثم تمدّدَت على مرتبة المجلس فاقدة الوعي، تأفّف "رامس"، ثم قال:

- هذا ما كان ينقصنا، "غيث".. تولّى أمرها.

- ماذا أفعل؟

- ابحث عن عطرٍ يا أحمق.

- لا تسبّني؛ فلم يفقد أحدهم وعيه أمامي من قبل.

فتحَت عينَيها لتجدهما أمامها، نطقَ "غيث" بنظرات يشوبها القلق:

- كيف تشعرين؟

قال "رامس":

- هل تهدئين وتسمحِين لنا بالكلام؟

نهضَت من مكانها، ثم مدّت يدَيْنِ مرتجفتَين تتحسّس وجهه، فقال وهو يحرك وجهه إلى الوراء:

- "سحر".. "سحر"، أذكّركِ أن هذا غير لائق، صحيح أنا شخصيتك، ولكن لي ذات منفردة الآن.

نقلت يدَيْها تتحسّس كتفه ثم يديه، فصاح:

- "سحر" توقفي الآن!

تركته واتجهت لـ"غيث"، وقبل أن تلمسه أمسَكَ يديها وقال:

- أنا حقيقي تمامًا، لا حاجة لأن تتأكدي.

قال "رامس":

- ما رأيكِ أن تأتي معنا؟ رحلة إلى عالمنا ترينَ ما صنَعَتْ يداكِ.

وافقه "غيث" بحماس:

- أظنها فكرة رائعة.

وضع "غيث" كفّه على عينيها، ظلام استمر لثوانٍ مع ملمس يده الباردة، لحظَات واختفى شعورها بيده وتشكّلَت الصورة أمامها، تدريجات الأزرق والأبيض تكسو كل شيء.. غرفة واسعة وبها عدة أشخاص يتبادلون الأحاديث، عادَت إليها الصورة ملونة من دهاليز عقلها الباطن، "إنها غرفة ضيوف "نورس"، هذا أول مشهد يجمعهم سويًا"، دلف

شخص من الباب، لباسٌ مهندم وشعر مصفّف بعناية رغم غياب الألوان احتفظ بوسامته، " سمير.. هذا سمير"، شخص آخر يدخل، قامة فارعة وجسد منسّق جدير بأجساد أبطال الإغريق، قال بصوته الجهوري:

- مرحبًا بكم جميعًا في منزلي المتواضع.

"نورس.. هذا نورس"، مرّرَت عينَيْها بين الحضور.. "رامس"، "فهاد"، "إيلاف"، "آدم"، "رُبا"، "نوف"، "مُناي"، "غيث"، "إنهم شخصيّاتي! أنا بإحدى المشاهد التي صنعتها!"، أزال "غيث" كفه فعادت ألوان عالمها، ليسألها "رامس":

- ما رأيك؟

- ما.. ما كان هذا؟ من أنتم؟

- نحن شخصياتك "سحر"، لقد عدنا إليكِ.

- هذا مستحيل.

- لماذا؟

- هل أنا مصابة بمرض عقليّ ما؟

حرك رأسه نافيًا وهو يقول:

- أنتِ في كامل قواك العقلية، ما ترينه حقيقة.

- لا يُعقَل، هذا ضرب من الجنون، لا وجود لكم سوى في دفتري.

- ومنه جئنا.

- أنتم حبرٌ على ورق!

- مادّةُ صُنعِنا.

صمتٌ استمر لبرهة، قطعه صوت "غيث" الغليظ:

- ما رأيكِ بمشهد آخر؟ التكرار يساعد على التصديق.

وضع كفّه الباردة على عينيها.. من جديد ارتسمت دائرة مكونة من ثلاثة أشخاص، فتاة مراهقة، استدعَت "سحر" صورتها الملونة من دهاليز عقلها الباطن لتبدو شقراء عسلية العينين، مُراهِق يلقي بأوراق اللعب، ثم يتمدّد أرضًا وهو يقول:

- لن ألعبَ من جديد، لقد سئمتُ هذه اللعبة.

قال "غيث":

- "غدي" أنتِ تغشّين، إنها المرة الخامسة لفوزِك.

- بل أنتما أحمقان.. المهم هل ستستمرّان؟

رد الفتى:

- لا, أنا جائع.

قال "غيث":

- "غسان"، اذهب ونادِ لنا أمي، ثلاث ساعات عند الجيران، أظنهم قد سئموا.

- ولماذا لا تذهب أنت؟

- أنا أكبركم.

- و"غدي" أصغرنا لتذهب هي.

نطقت "غدي":

- دعكما من الجوع الآن، "غيث" أريد زيارة بلادي.

تجهم وجه "غيث" ثم قال:

- لا، لن نذهب.

- يكاد الشوق يقتلني!

- أفضل من أن تقتلَكِ الحرب.

سأل "غسان" :

- "غيث"، ألم تشتَقْ أبدًا لأبي؟

- ماذا رأيتُ منه حتى أشتاق إليه؟ ربما أنت لا تتذكر، لكنني لا أنسى.

نظرت إليه "غدي"، ثم قالت:

- أنت خزّان.. خزّان يحتفظ بالسوء فقط.

صاح "غيث" بحدة:

- لم أرَ منه إلا السوء، أنتِ لا تذكرين كنتِ طفلة ذات أعوام ثلاثة عندما تركنا، كنتِ طفلة عندما اضطررتُ لترك دراستي حتى أعولكم، وأنا مراهق ذو خمس عشرة سنة فقط، كان يتذكر أبناءَه بدراهم معدودة لا تُسمِن ولا تُغنِي من جوع، أنتِ لم تَرَي دموع أمي وحسرتها، خزّان يحتفظ بالسوء، نعم هذا أنا.. أحتفظ بما أراه.

- "غيث" اهدأ، "غدي" لم تكن تقصد.

قال بصوت متحشرج يقاوم انزلاق دمعاته:

- أنتما لا تتذكران، أما أنا فألمي لا يُنسى.

صَمَتَ لثوانٍ، ثم استعاد قوة صوته وقال:

- عليكما أن تعيَا هذه الحقيقة.. نحن بلا أب، هناك أُمّ فقط.

- "غيث"، عليك القول أنا بلا أب؛ فأنا و"غديّ" نمتلك واحدًا.. أنت.

ارتسمَت على شفتيه ابتسامة مريرة، ثم سألهما:

- هل تعلمان ما كان حلمي؟

تطلّعَا إليه بأعينهما اللامعة؛ فأردف:

- أن أصير محاميًا، ربما حلمي كان صغيرًا لم يخرج من سطور مذكرتي، محامٍ صغير يكبر شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى مراده، لم أكن عجولًا.. حلمتُ بنفسي أصعد الدرج، ولكن حاليًا اختفى الدرج، حاليًا لا يوجد سوى سطور حلمي التي سطّرتُها في الثانية عشرة من عمري، الآن ذابَت أحلامي جميعها،

وعلمتني الحياة أن مِثلِي لا ينبغي له الحلم مرة أخرى، وما يجعلني أستمر هو أنتما.

أزال "غيث" يده، لتعود ملامحه الملونة إلى الظهور.. عينان ضيقتان وبشرة قمحية وشعر بُنّي، "غيث" شخصيتها الباسلة التي دائما تمنت رؤيته يجلس أمامها الان، استمر صمت ثقيل قطعه صوتها المتأرجح:

- ول.. لكن كيف؟ ولماذا؟ ماذا تريدان؟

- هل يجب بنظرِكِ أن نريد شيئًا معيّنًا؟

- بالطبع، وإلا ما الذي يفسر ظهوركما، ربما أنتما من لصوص!

قال "رامس" بنفاد صبر:

- هذا احتمال مُستبعد؛ فقد ظهرتُ أمام عينيك.

- إذًا لقد جُنِنت! رائع جدًا أنا مجنونة الآن، هيييه أبي تعال و...

صاح "رامس":

- "سحر" توقفي!

تساءل "غيث":

- ماذا نفعل لتصدّقِ أننا حقيقة؟

تلّفت "رامس" حوله، ثم دلف إلى غرفتها واختفى بالداخل، ثم عاد وبيده مصحفها، ناوله إلى "غيث" وهو يقول:

- احلف لها على المصحف ربما تصدق!

- ولماذا لا تحلف أنت؟

- لا أظنّ أنها ستصدقني.

- هل أنت مخمور؟

- لا لم أتناول شيئًا، لكنها ستصدقكَ أنت.

صاحت "سحر":

- كفى.. اخرجَا من هنا.

- إن خرجنا من هنا فلن نخرج من عقلك.

أردف "غيث":

- "سحر"، مثلما تقولون "نحن قدرُكِ الأسود".

سأله "رامس":

- ولماذا أسود يا "غيث"؟

- أنت تعلم لماذا، هل من الرائع أن تستيقظ صباحًا لتجد في منزلك مَن..

- حسنًا اصمُت يا "غيث".. اصمت.

ثم أكمل وهو يتجه إلى "سحر":

- ما رأيكِ أن تأتي معي؟ لن ترَي المشاهد من الأعلى، ستجدين نفسك داخلها.

قبل أن تنطق جثا على ركبتيه أمامها ثم ضمّها.

(الفصل الثالث)

على سرير كبير وجدَت نفسها جالسة، معلقة على الجدار المقابل لوحة زحل يأكل أبناءَه بالأزرق والأبيض، أمامها "رامس" يخلع سترته الصوفية، ثم يصبّ لنفسه كأسًا من سائل أزرق، صاحت به:

- أين أنا؟

أجابها من دون أن ينظر لها:

- في عالمي.

- ماذا؟!

- إجابة محددة أكثر.. في منزلي وعلى سريري.

توجه إليها وجلس إلى جانبها، اكتساها الذعر وهي تتذكر نوع مشروبه المفضل الذي يملأ الكأس.

- إجابة محددة أكثر وأكثر.. أنتِ في منزل "رامس فهد".. أكثر شخصياتك انحلالًا.

نهضَت وهي تقاوم ساقيها المرتجفتين.

- هذا مشهد لم أكتبه!

قال وهو يبدو عليه الاستمتاع:

- ولكنه يحدث الآن.

تناول جرعة من كأسه وهو ينظر إليها، تجمّعَت الدموع في عينيها ثم قالت:

- أعِدْني.

نهض واتجه إليها ببطء:

- لن يحدث يا صغيرتي، لن يحدث الآن.. أنتِ وحيدة تماما كغزالة في قفصِ أسد جائع.

قالت وهي تعود إلى الوراء حتى اصطدمت بالجدار:

- "رامس"، باللهِ عليكَ أعِدْني، أنت لا تفعل هذا، لستَ بهذا السوء أنا أعلمك.

- لا.. أنتِ لا تعلمين.

قال تلك الكلمات وهو يقف أمامها مباشرة، مدّت يدَيها لتدفعه بأقوى ما يمكنها؛ فاخترقت يداها جسده، وانفجر "رامس" يضحك:

- يا إلهي! لم أتوقع أنكِ ستخافين.

ابتعد عنها، ثم جلس على سريره وهو يقهقه:

- أنتِ لستِ جزءًا من هذا العالم؛ لذلك وأنتِ داخله أنا لا أمتلك أي تأثير عليكِ، فقط لمسك لإعادتكِ إلى عالمك، ثم بصراحة أنتِ تعلمين أنكِ لستِ نوعي المفضل.

توجّهَت إليه، ثم صفعَت خدّه لتخترق يدها وجهه تمامًا كالهواء، فغمز "رامس"بعينه ثم قال:

- كان مقلبًا جيدًا.

قالت وهي تضغط على حروفها:

- "رامس"، أعِدْني إلى عالمي.

- تؤ تؤ تؤ لن يحدث، ليس قبل أن تشاهدي.

- أشاهد ماذا؟

- ما صنعه قلمك، لحظات ويبدأ العرض.

اختفى من أمامها.. صاحَت باسمه فلم يخرج صوتها، عاوَدَت مرارًا فلم تستطع التكلم، نظرت حولها؛ غرفة "رامس" التي تخيّلَتْها مرارًا، فوضى في كل مكان وكومة ملابس ملقاة على جانب السرير الداخلي، توجّهَت إلى المرآة فرأَت صورتها، ملوّنة في عالم يكتسي بالأبيض والأزرق،

ترتدي منامتها الخضراء وشعرها الأسود المجعد ينساب بحُرّيّة على كتفيها وظهرها، سمعَت صوتَ بابٍ يُغلق، ثم "رامس" يدخل إلى غرفته، نادته من جديد فلم يخرج صوتها، كأنه لا يراها، خلع سترته الصوفية ثم صبَّ في كأسه، مرّ من خلالها كأنها هواء ليقف أمام مرآته، "هو لا يراني"، صوت أفكار "سحر" يهمس، صاح "رامس" وهو ينظر إلى مرآته:

- إلى متى؟! إلى متى سأظل هكذا؟ إلى متى أخبرني؟ إلى متى هذه الحياة الخربة؟ حياة منبوذٍ حقيرٍ طُرد من منزله يشرب الخمر وليله مع العاهرات، إلى متى ستظل حياتك بلا معنى؟ هاه! حتى المرة الوحيدة التي نبض فيها قلبك الأسود بالحب لم تستطع أن تصارحها، هل تعلم لماذا؟ لأنها نقية كأنهار الجنان وأنت نَتِن، لن تقبل أن تشاركَكَ هذه الحياة القذرة، لن تحتمل غرورك وأنانيتك وتقديسَك لنفسك وملذّاتك، لن تحتمل قلبًا أسود كالذي تملكه، إلى متى يا رامس؟

صمتَ وهو يتأمل صورته:

- إلى متى تسألني إلى متى؟ إلى أن تقرّر أنت التغيير.

"هذا هو صوت صورته في المرآة، إنها أولى مشاهد "رامس" التي كتبتُها.. صراعه مع نفسه، سينتهي المشهد بخروجه من المنزل" اختلط حولها الأزرق بالأبيض ثم سقطَت أرضًا.

*****

فتحَت عينَيها فرأت جدارًا بُنّيًّا، نهضَت ثم تفقدت المكان ببصرها، منزلها الصغير الدافئ، دلفَت إلى المطبخ ثم أحضرت كوبَ ماء وتجرّعته كاملًا، أسندت كفيها إلى طاولة المطبخ، وهمست:

- هل كنتُ أحلم؟

رنات الهاتف المتقطعة انتشلَتْها من شرودها، كم مضى عليها واقفة تفكر؟ لا تعلم، دائمًا في هذه اللحظات يتلاشى إحساسها بالزمن، خرجَت من المطبخ وتأمّلَت هاتفها الملقى على مرتبة المجلس، "أم آسر"، حدّقَت في الهاتف لحظات أنهَت خلالها إحدى افكارها الملحّة بحلٍّ تعلم أنها ستنساه لاحقًا، ثم أجابت على الهاتف، صوت والدتها الدافئ يأتي من القارة الأخرى.

- "سحر"، أوحَشْتِني.

صوت الفتاتَين يتبع صوت الأم، "ثحل ثحل هيييييه"، "أوحشتِني يا ثحل"، ابتسمَت وهي ترى وجوههن عبر شاشة هاتفها المخدوشة وقالت:

- عشرة أيام وستكون "ثحل" معكم.

أنهت مكالمتها وتمدّدَت على المجلس، "من يُصدق؟ مر عام على الأمر"، كأنه بالأمس، هل تذكرين؟ كان صباح اختبار عمليّ لإحدى المواد، كانت الأحياء، عُدتُ من السفر لأجد البيت موحشًا خاليا بعد سفرهم.. أخّ لولا هذه الضرائب المفروضة على المقيمين لكانت معي، مرَّت الأيام كالقطار وستكونين معها"، تنبّهَت قبل أن يسحبها تيار أفكارها الجارف، هزَّت رأسها تُبعِد كل هذا، اعتدلت في جلستها، "لا نريد أن نغوص في بحر متلاطم الأمواج، نريدُ سيلًا منتظمًا من التفكير، هل كان الأمر حقيقيًّا؟"، طرحت إحدى الأفكار هذا السؤال لتجد نفسها من جديد في نمطٍ عبثيّ من عشرات الأفكار، هزت رأسها من جديد، ثم أمسكت هاتفها وأجرت مكالمة، صوته المرح يجيب:

- الدوك بنفسها؟ يا لي من محظوظ.

- "مازن"، هل أنت..

حروف تأتي لتصبّ في قالبٍ معين، يجلس أمامها بقامته الضخمة واضعًا قبضته أسفل ذقنه، عيناه الزرقاوان مثبّتان عليها تتفحصانها، ابتسامة واسعة تُظهِر صفًّا مرصوصًا من الأسنان، ملامحه الباردة كطقس بلاده تتجسد أمامها، تحجّرَت الحروف في فمها؛ فالتقط منها الهاتف وأغلقه، ثم قال:

- أوحشتِني.

قالت بصوت متسائل:

- "نورس"!

- بشحمه ولحمِه بالنسخة الملوّنة.

- ماذا تريدون؟

- هل من اللازم أن نريدَ شيئًا؟

- إذًا لماذا ظهرت؟

- أردتُ رؤيتك.

- أكّد لي أنه ليس حلمًا.

- هو ليس كذلك.

- إذًا اسمح لي بالصراخ.. آآآآ...

كمم فمها بيده، ثم قال:

- "سحر"، أنتِ أذكى من أن تفعلي هذا، ستصرخين.. وحالما يسمعك أحد سأختفي، لن يرانا سواكِ.. ستبدِين مجنونة في نظر الجميع.

مدّ كفه الأخرى ومسّد رأسها.

- اهدئي اهدئي.. هل كنتِ ملتاعة هكذا مع "غيث" و"رامس"؟

- امممممم.

- أوه آسف.

أزال كفه؛ فقالت:

- هما "غيث" و"رامس"!

- وما الفرق؟

- أنت تعلم.

- لا تخافي يا "سحر"، قدراتنا تبقى محدودة طالما أننا أفكار داخل رأسك، تعالِي معي في جولة.

- لن أذهب معك إلى أي مكان.

- "سحر" اهدئي أخبرتكِ أن قدراتنا محدودة.

همَّت أن تنهض؛ فأمسكها من معصمها بقوة، ثم ألصقَ جسده بجسدها، ليتلاشى منزلها.

مطعمٌ راقٍ يغلب على جوّه اللون الأزرق، بدا طبيعيًا لها؛ لأن هذا هو تخيلها له، طاولة في المنتصف تجمعهم، "رامس" يدلف من الباب ليتّجه إليهم، اتخذ مقعدًا بجانب "غيث"، دارت "سحر" حول طاولتهم، حاولَت التكلم فلم يخرج صوتها، كأنها تتابع مسلسلًا محكومَ الأقدار، لا يحق لها التدخل في أحداثه.. فقط المشاهدة، اقتربَت من "غيث" لعلمها بما سيقول همسًا لـ"رامس"، حركّت شفاهَهَا مع صوت "غيث" الغليظ الذي يهمس:

- المزيد من الصراعات؟

- وما أدراك؟

- انظر لوجهك وستعرف.

- المزيد يا "غيث" المزيد.. أنا متعبٌ مُنهكٌ مُستاء.

- لا تؤجل استخدام الحل.

- إن التغيير ليس سهلًا يا "غيث"، وأنتَ تعلم ذلك.

تحركت عينا "رامس" على المدخل، الْتفتَت "سحر" فرأت "مُناي" تتقدم، فستان أبيض امتلأ بورود زرقاء، هتفَ صوت أفكار "سحر" معترضًا، "كان العكس؟ الفستان أزرقٌ بالكامل وروده بيضاء، مَن المسؤول عن تحويل الألوان هنا؟" اتّخذَت "مُناي" مقعدًا بجانب "رُبا"، ثم قالت:

- مرحبًا جميعًا، أين "نوف"؟

رد "فهاد":

- لن تأتي.. تقول إنها متعبة، لا أصدّقها.. سخيفة.

قال "رامس":

- ربما تريد الراحة من رؤية وجوهكم، وإلا لماذا صُنعَت العطلة؟ هاه؟

ردت "رُبا":

- وما الذي أتى بك؟

قال "فهاد" مازحًا:

- بالطبع لا يريد تضييع فرصة غداءٍ مجانيّ.

قال "رامس":

- تذكّر أنك هُنا بفضل الراتب الذي أقدمه لك، ثم أنا لا أمتلك شيئًا آخر أفعله سوى رؤيتكم.

قال تلك الكلمات ثم نظر إلى الأرض، لحظات ورفعها يتأمل "مُناي" وهي تتحدث، تبتسِم ابتسامة خجلَى، ترفع كفها لتداري فمها، اصطدمَت عيناها به فرأَتْه يحدّق بها، سألته:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- وهل مُنع النظر إليكِ؟

- آه.. يبدو أنكَ كالعادة تريد افتعال المشاكل، ولكنني اليوم لستُ متاحة للشجار "رامس".

- أنتِ مستفزة.. مستفزة كثيرًا.

- قلتُ إنني لستُ متاحة للشجار، غدًا إن شاء الله سأكون مستعدة.

- هل تعلمين "مُناي"..

بدأ صوته يعلو ويتخذ طابعًا أكثر حِدة وهو يكمل:

- أنتِ مستفزة وساذجة وسخيفة وسطحية وأنا أكرهك، أكرهكِ كثيرًا.

التفتَتْ بعض الرؤوس المتطفّلة من الطاولات المجاورة تستطلع ما هناك، كانت أنفاس "رامس" متسارعة ويدُهُ ترتجف، اتّسعَت عينا "مُناي" ودُهش الجميع، معتادُون هم على كلماته اللاذعة بالأخص مع "مُناي"، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا، وجدت "سحر" الحنق يتسلّل إلى داخلها، رغم معرفتها بمشاعر "رامس" وما يحاول مداراته إلّا أنها لم تتحمل تلك الإهانة التي كتبتها هي يومًا، تداخَلَت أصوات الجالسين تحاول تهدئته، استمرت "مُناي" تنظر إليه في ثبات، ثم بعد صمت الجميع نطقت:

- رامس، هل أنت بخير؟

نظر لها طويلًا، ثم نهض من مقعده واتجه إلى طاولة خاوية في آخر المطعم بجانبها زجاج يُظهر الطريق الخارجي، نَطقَ "آدم":

- إنه ثَمِل، لا بد أن الخمر أفسدَتْ عقله.

قالت "مُناي" معترضة:

- لا, "رامس" لا يشرب صباحًا أبدًا، سأذهب إليه.

قال "سمير":

- أنصحكِ ألا تفعلي "مُناي"؛ سيثور بوجهك.

- لا أستطيع، يجب أن أرى ماذا به.

اتّجهَت إلى حيث يجلس، تبعتها "سحر" وهي تستمتِع بما ترى، اتّخذَت "مُناي" مقعدًا أمام "رامس"، ثم قالت:

- أكررها وأرجو إجابة، هل أنتَ بخير؟

- لماذا تبغِتِني؟

- أنت صديقي، هذا من واجبي.

- عودي إلى مقعدكِ "مُناي".

- جرّب أن تتحدث معي "رامس"، سترتاح.

- اتركيني وشأني، أنا لا أحتاجُك.

- كما تريد يا رامس، ولكن تذكّر أنني حاولت.

تركته ونهضت، وقفت "سحر" أمامه تتأمله، تسمع ضجيجَ أفكاره، لأول مرة شعرَت بالشفقة عليه، لم تُكِنّ يومًا لشخصياتها أي مشاعر، لم تتعاطف مع مصائبهم أو تحزن على نكساتهم، تفعل ذلك مع شخصيات القصص الأخرى، أما شخصياتها فلا، قال "رامس" محدّثًا نفسه:

- إنها لا تفهم.

صوت داخل عقله يعطيه ردًا:

- كيف ستفهم وأنت لم تعبّر يومًا عما بداخلك، معاملة جافة وألفاظ لاذعة.

- أفعل ذلك حتى لا تشعرَ بضعفي وحاجتي إليها، أنا لا أناسبها.

شعر بيدٍ غليظة على كتفه تبعها صوت:

- أصابك الداء.. داء العشق.

التفت "رامس" كالملدوغ إلى "غيث" الذي يقف وراءَه، أكمل "غيث" وهو يتخذ مقعدًا إلى جواره:

- لا تنظر إلي هكذا، منذ نبضة قلبكَ الأولى وأنا أعلم، كنتُ أنتظر أن تخبرني ولكنك لم تفعل، توقّعتُ أنّ حبّها سيدفعك للأمام.. للحصول عليها، ولكنه زادك تخبّطًا وضياعًا، ثلاث سنوات يا أخي وأنت تُخفِي! ما أنت؟ حجر! كيف تحتمل؟

- "غيث"، تعلم أنني لا أستحقها، ثم إنها لن تحتملني ولن توافق عليّ، ولو احتملَت ستتألم، وأنا لا أريد أن يتألم أحد بسببي.

- ولكنك تتركُ نفسك فريسة للوجع؟

- تصرفاتي وأنا من يتحمل عواقبها، أما هي فلا.

- لا تقسُ على نفسك، دائمًا هناك فرصة.

- فرصة ليست سهلة الاقتناص.

- لا يوجد في هذه الحياة شيء سهل، هل سُتقدّم لك أحلامك على طبقٍ من ذهب؟

- "غيث"، أنا لا أمتلك القوة.

- باب الله مفتوح.. الجأ إليه، لن يُغلِقَ بابَه في وجهك.

- أنا أستحي.. أستحي أن أطلب عونه وأنا ملوث بالموبقات، أستحِي أن أقف بين يديه.

- ولا تستحي رؤيتَهُ لكَ تعصاه! لا تستحي رؤيتَه لك مع إحداهن! لا تستحي رؤيته لك تاركًا الصلاة لا يفصلُكَ شيء عن الكفر!

- "غيث"، قلت لك إنني لا أستطيع.

- قل لا أريد، لا تريد إجهاد نفسك بالمحاولة.

استمر حوارهما، تركتهما "سحر" وتوجّهَت إلى باب المطعم، ترى الطريق وعلى جانبه اصطَفّت السيارات مائلة، لمحَت سيارة "رامس"

كحليّة اللون، تذكرّتها بصورتها الملوّنة سوداء فاحمة، خطَّت خارج المقهى، اختفى ذلك المنظر..

ممرٌّ طويل لا ترى له نهاية، بين جدرانه عددٌ لا متناهٍ من الأبواب، أحدهم باب المطعم الذي خرجَت منه لتوّها، خطّت بضع خطوات ثم فتحت أحد الأبواب وتطلّعَت إلى ما في داخله؛ "سمير" يتمدّد على الأريكة وإلى جانبه صغيرته تشكو له مدرستها:

- أبي، إنهم قساة! أنا لا أريد أن أعود إليها، أريد مدرسَتِي السابقة.

- سبق وأن تحدثنا في هذا الموضوع يا "سالي"، وأخبرتكِ أنه بعد وفاة أمك أنا لا أستطيع أن أتحمل مسؤولياتك كاملة إلى جانب عملي.

- أخرجني منها وسأسكن مع عمتي.

خرجَت امرأة بدينة من المطبخ تحمل كوبَين تتصاعد منهما رائحة القهوة التركية، قالت:

- لا تُتعِبِي نفسك بمناقشته يا "سالي"، لقد سبق وناقشتُه عشرات المرات.

- أنا أفعل ما فيه مصلحتها.

- بل ما فيه راحتك!

صاح بحدة:

- "ولاء"!

نظر إلى طفلته ثم قال:

- "سالي"، إلى غرفتك.

انتظر حتى غابت "سالي" في الغرفة، ثم قال:

- "ولاء"، أخبرتكِ سابقًا أن تكفّي عن هذا الكلام أمام ابنتي.

- "سمير"، ما تفعله تدميرٌ لابنتك، إنك تُبقِيها في مدرسة داخلية حتى توفّر الراحة لنفسك، هل تستوعب هذا؟ إن الفتاة تشعر أنها يتيمة أب وأم الآن.

- من حقي أن أفكّر في نفسي.

- إنها ابنتك يا "سمير"! دائمًا كنتُ أستوعِب أنانيتك، لكن الآن لا أعلم كيف تفكر!

- "ولاء"!

هزت "سحر" رأسها ثم خرجت، في النهاية سيتشاجر "سمير" مع أخته لتتركه وتنصرف.. "سمير" شخصيّتُها الوسيمة المثقفة الأنانية، لم ينَل الكثير من النجاح في زواجه، تذكّرَت مشاعره عندما توفِّيَت زوجته اختلطت بين الحزن وفرحة الخلاص، حتى إنه استحى من نفسه لمثل هذا الاختلاط، مشَت بضع خطوات تشير بسبابتها إلى الأبواب على الجانبين:

- حادي بادي.

استقر إصبعها على أحد الأبواب، فتحته.. هناك فتاة نائمة على السرير والعرق يتصبّب منها، تُحرك رأسها يمنة ويسرة، تقاوم كابوسًا مزعجًا، اقتربَت منها "سحر" تتأملها.. "نوف" في الخامسة والعشرين من عمرها، نحيلة أقرب إلى عود ذرة، بشرة بيضاء شاحبة مع شعرٍ بنيّ يتناثر على الوسادة، صرخَت الفتاة واستيقَظَت، هرعَت أختها "نورة" من سريرها تسألها ما هناك، فقالت "نوف":

- ذات الكابوس، دماء وصرخات.. وجوهٌ مألوفة لا أستطيع تمييزها، أركضُ من مجهول.

- أضغاث أحلام.

- إنها المرة الثالثة.

- حسنًا.. تجرّعي من الماء الآن.

- لا لا أريد، أنا خائفة، أحلامي كحدسي لا تخيب.

- "نوف"، اشربي كوب الماء هذا الآن.

مسّدَت شعرها وهي تسقيها كوب الماء، ثم قالت:

- لن يحدث سوء.. لن يحدث.

قالت "نوف" ودموعها تسيل:

- أنتِ تذكرين ذلك الحلم الذي راودني قبل وفاة أمي وأبي.. صحيح؟ تذكرينه؟ كان يحوِي تفاصيلَ حادث سيارتهما يا "نورة".

ضمتها "نورة"، ثم مسدت شعرها وهي تردد:

- خير خير، فقط اهدئي.

خرجت "سحر" من الغرفة ثم أغلقت الباب، رأت جسدًا يقترب، تبيّنَت ملامحه، قال:

- ما رأيكِ أن تعودي الآن؟

- "نورس" من أتى بي.

- و"غيث" سيعيدُك.

اقتربَ منها ثم ضمها، على مرتبة المجلس الأرضية جلسَت وهو إلى جوارها، نظرَت إليه مستفهمة، ثم نطقت:

- "غيث".

- نعم؟

- أريد تفسيرًا.

- أرى نظراتكِ قد تغيّرَت من الذعر إلى التعجب.

- ما الذي تريدونه؟ لماذا ظهرتم؟ لن يجيبني غيرك.

- "خُلق الإنسان من عجل" ذكرت في أي سورة؟.

- "غيث" أجبني!

- لماذا تفسدين على نفسكِ روعة الأمر؟ ستعيشين معنا تفاصيل حياتنا، سترِينَ صُنع قلمك، سنكون أصدقاءك.. معكِ ونساعدك.

- الأمر لا يخضع لأي منطق حقيقي! كيف ولماذا و...

- للخيال منطقُه.

- وما منطق الخيال؟

ثم صاحت:

- أنتم أفكار في رأسي جسّدَها حبرٌ على ورق.

- "سحر"، ما يجب أن تعرفيه الآن أننا هنا، لا سبيل للخلاص منا، أعرفكِ متكيّفة مع جميع الأوضاع، تكيّفي مع وجودنا.

- بالله! هذا على اعتبار أنكم منزل جديد انتقلتُ إليه! أو مدرسة جديدة!

- لو كنتُ مكانك لاعتبرتُ الأمر كذلك.

أمسكت رأسها بكلتا يديها، ثم قالت:

- أنتَ تريد إفقادِي عقلي.

- طبعًا لا.

استمر صمت ثقيل لدقائق، ثم قال:

- سأتركِكِ الآن، لنا لقاء آخر.

أسندت رأسها إلى الحائط، تراودها مئات الأفكار، "هل هم من الجان؟ أعوذ بالله.. كُفي عن السخافات، بالله! أوَلَيس ما يحدث أكبر سخافة؟"، هزّت رأسها تُسكت أفكارها، أمسكَت هاتفها وأعادت تشغيله، عشرات الرسائل تتوالَى مع رنينها المزعج، "ظهرت يا بنات"، ""سحر"

بشّرِي كيف هي نتيجتك؟"، اعتدلَت في جلستها تتابع تغيّر الرسائل في أعلى الشاشة، فتحت إحدى الرسائل ثم كتبت كرد..

- بهذه السرعة؟ لقد انتهَت اختباراتنا امس!

ظهرت رسالتها باللون الأصفر، في الأعلى " "تبارك" يكتب"، ظهر رد "تبارك":

- منذ متى ومدرستنا تتأخر في إعلان النتائج؟ المهم بشرينا بنتيجتك.

ظهر رد "فاطمة":

- الله يبارك في أجهزة التصحيح الآلي هي من تنهي التصحيح سريعًا وتنقذنا من الانتظار.

حرّكَت يدها تكتب رسالة، ثم تركت الهاتف وهرعت إلى حقيبتها، أخرجَت قصاصة صغيرة بيدين مرتجفتين، عادت وجلست على المجلس وبيدها القصاصة، "بسم الله"، أدخلت البيانات ظهرت رسالة "لا يمكن الوصول للموقع الآن".

- اللعنة!

مرت دقائق ثقيلة، واضعة القصاصة أمامها والهاتف على فخذها، ثوان تمر ثم تعيد المحاولة من جديد، صوت رنين الرسائل المزعج، ("سحر"، هل علمتِ نتيجتك؟).. (يبدو أن هناك خللًا بالموقع من كثرة الضغط عليه)، تقرأ الرسائل بعينين زائغتين أعلى الشاشة ثم تزيلها، "آخر مرة وإن لم تظهر سأترك الهاتف وأتناول شيئًا"، كل مرة تُردّد هذه الكلمات، إلى أن ظهرَت نتيجتها أمامها، قفزت من مكانها غير مصدقة، دارَت في الشقة تقفز فرحًا، ثم عادت إلى هاتفها وكتبت..

- تم الأمر يا بنات.

- والناجح يرفع إيده..

- هيه هييه هييه.

صوت باب الشقة يُفتح، ثم وجه رجل أربعيني بلحية خفيفة يبرز، ابتسم ثم قال:

- أعرف أن الناجح يشكر الله، لا يغني ويقفز كالمجانين.

اتجهت "سحر" إليه؛ فضمها ثم قبّل رأسها.

- مبارك يا ابنتي.

- بارك الله في عمرك يا ابي

- وأنتَ يا "آسر" متى ستظهر نتيجتك؟

- في الغالب بعد غد يا أبي.

- على خير إن شاء الله.

ناول "سحر" ما بيده، ثم قال:

- وغداء اليوم أيضًا عليّ، حلاوة نجاحك.

تناولَت منه الكيس البلاستيكي ثم دلفت إلى المطبخ، وضعَت المحتويات سريعًا داخل الأطباق، مُحيَ من عقلها كل ما يتعلق بوجود شخصياتها، أتاها صوت والداها مناديًا، خرجَت لتجده ممسكًا بهاتفه.

- "سحر" انظري.. إنها نسخة عروض أسواق العثيم، هل تحتاجين شيئًا؟

- حسنًا، بعد الغداء يا أبي.

- لا سأذهب الآن، بعد الغداء يزدحم المكان وتنفد الأشياء الجيدة.

- حسنًا اذهب.

قال "آسر":

- سآتي معك.

- لا لحظة.. إذًا خذاني معكما.

- أنتِ تقضين دهورًا في ارتداء الملابس.

لكمَتْهُ في بطنه، ثم قالت:

- حسنًا.. اذهَب أنت وأبي، نتحاسب فيما بعد، المهم أن لا تُنسَ هديتي.

تركاها وغادرا، دلفَت إلى المطبخ تتفقد المكونات، "زيت بيض دقيق سكر حليب، رائع! لدي كل المكونات"، صوتٌ أتاها من الخلف:

- مبارك يا "سحر".

ردّت من دون أن تلتفت:

- لا بارك الله فيك.

- تؤ تؤ تؤ لا أظنّكِ تريدين شجارًا معي، تعرفين ردودي.

- وأنتَ لا تعلم لساني.

- أعلم أنني أحَبُّ شخصياتك إلى قلبك لا تحاولي الإخفاء.

- لم أكنّ يومًا لشخصياتي أي مشاعر.

- قلتُ لا تحاولي الإخفاء؛ فالأمر واضح، خاصة بعدما رأيتِني أمامكِ بوسامتي المعهودة.

التفتَت إليه وقد رفعت حاجبيها، تناولت سكينًا ثم قالت:

- هل تظن أن شخصا بقذارتك قد ينال إعجابي؟

اقتربَت منه ببطء، ثم أردفت:

- أنتَ كالماكينة الصدئة يا "رامس"، لا تصلح حتى لقطَع الغيار.

- أبعدي السكين.

- لن أبعده، سأكون أول كاتبة تقتل شخصيتها بسكين، سأغرسه ببطنك.

- لا أظنكِ تقوِين على فعلها.

همّت أن تغرس السكين في بطنه، ثم تذكرت شيئًا؛ فتوقّفَت وقالت:

- "رامس"، كيف ظهر لي الموتى؟

- وهل من العقل أن تظهر لكِ شخصيات الرواية من الأساس حتى تُطالبي بمنطقية الموت والحياة؟

- أنتَ محق.

غرست سكينها فاخترق الهواء، أتاها صوته من الخلف فالتفتت:

- حتى لو اخترقَت بطني فلن تفلحي في التخلص مني.

- كنت أعلم ذلك، فقط أردتُ التجربة!

- أراكِ تقبّلتِ وجودنا.

- لم أتقبّله، أنا فقط لا أريد إفساد فرحتي الآن؛ فاخترت تأجيل التفكير في السبب والحل.

- كلاهما موجود، ولكن ليس الوقت المناسب لذكرهما.

نظرَت في عينيه مباشرة، ثم قالت:

- "رامس" أرجوك.

- "سحر"، الحل سيأتي لا تقلقي.

حروف زرقاء تأتي من اللامكان تصبّ في قالب معين، فتاة ترتدي فستانًا فيروزيًّا وحجابًا أبيض مع ورود فيروزيّة، عينان واسعتان امتدّ تحتهما مسحة من الهالات السوداء، أنف دقيق وبشرة خمرية مع ابتسامة هادئة، نطقت "سحر":

- "مُناي"!

ردت الفتاة:

- أنا هي.

- جميلة كما تخيّلتُك.

- لقد وضعتِ بداخلي جمالَكِ يا "سحر".

شمّرَت "مُناي" عن ساعديها، ثم قالت بصوتها الهادئ:

- ما رأيكِ أن نعد الكعكة سويًا؟

همس "رامس":

- رقيقة كبَتَلاتِ الورد يا "مُناي".

صاحت "سحر":

- نعم!

- ماذا؟

- ما الذي قلتَه الآن؟

- أظنكِ سمعتني!

- ومنذ متى تتلفظ غزلًا؟

نظر "رامس" إلى الأرض في شيء من الحرج، ثم استعاد طبيعته ونظر في عينيها مباشرة وصاح:

- للمرة الثانية أحذّرُكِ من ردودي.

- وللمرة الثانية أحذّرك من لساني.

- متعجرفة حمـ...

صاحت "مُناي":

- كفى.

*****

تمدّدَت على سريرها.. صوتُ جهاز التبريد يقطع صمت المكان، "آسر" ووالدها ينامان بالغرفة المجاورة وهي وحيدة بغرفتها، انقَشعَت سحابة السعادة التي كانت تُظللها، بدأت تستحضر أحداث اليوم بتوجس، "كيف تصرفتُ معهما هكذا وكأن الأمر طبيعيًا؟! هل أنا مريضة؟ هل عقلي بخير؟"، تسارعَت أنفاسها وهي تتذكر الفيلم الوثائقي الذي تابعته عن بعض الأمراض العقلية، "لا لا.. ليس مرضًا عقليًّا، إن ما عشتُه حقيقيّ تمامًا، أنا بخير وشيء كهذا لا يمكن أن يصيبني".. "ولكن ما المانع؟"، نهضت من سريرها بسرعة، تناولَت هاتفها وكتبت رسالة، ثواني حتى جاءها الرد، أجرَت اتصالًا ثم غادرت غرفتها واتجهت إلى سطح المنزل، صوت "تبارك" المرتبك يجيب:

- "سحر"، ماذا هناك؟

- "تبارك"، استمعي لي.

مستلقية على سريرها وخصلات شعرها الفاحم تتناثَر حولها، عيناها الرماديتان تتسعان وهي تستمع إلى كلمات "سحر" بتركيز، صمتَت "سحر"، ولم يبقَ سوى صوت أنفاسهما المضطرب، نطقَت "تبارك":

- "سحر"، هل حقًا حدث هذا؟

- أقسم بالله لم أُزِد حرفًا، ما الحل؟

- الحل! أقرب طبيب يا "سحر".

- "تبارك"، إن الأمر حقيقيّ، أقسم بالله إنه كذلك.

- "سحر"، عم تتحدثين؟ هل تمزحين؟! بالله قولي ذلك.

- حسنًا، لقد جلب "رامس" المصحف من غرفتي ليحلف عليه، ناوله إلى "غيث"، ثم ذهبتُ معهما إلى عالمهما، عندما عدتُ وجدتُ مصحفي على مرتبة المجلس، أقسم بالله أنه كان في غرفتي و"رامس" مَن جلبه.

- "سحر"!

- ثم أيضًا نعم.. عندما كنت مع "غيث" وأمسكتُ هاتفي وجدته مغلقًا وأعدت تشغيله، كان "نورس" قد أغلقه عندما كنت أتحدث مع "مازن".

ثم قالت كمن يتذكر شيئًا:

- صحيح.. "مازن" لم أحدّثه بعد ذلك وتجاهلتُ رسائله، حتى نتيجتي لم أخبرْه بها، "تبارك" على موعدنا غدًا في منزلك، إلى اللقاء.

أغلقَت الخط قبل أن تسمع رد "تبارك"، قرأت رسائل "مازن" بسرعة، ثم ضغطت اتصال.. صوت الجرس الرتيب ثم صوته الحانق..

- الآن تذكرتِ أن هناك شخصًا ينهشُه القلق عليك.

- آسفة يا "مازن"، ظهرَت نتيجتي وهاتفت امي ، ثم...

قال في لهفة:

- حقًا؟ هاه ماذا فعلتِ؟

- ألم تخبرك أمي؟

- لم ألتقِهَا اليوم.. المهم ماذا فعلتِ؟

- الحمد لله كما توقعت.

تنفس الصعداء، ثم قال:

- الحمد لله، ولكن لماذا صوتكِ يحمل الهم؟

لحّت عليها فكرة غامضة "لا تخبريه".. "لماذا يا حمقاء؟".. "فقط استمعي إليّ لا تخبريه".

- الأمر يتعلق بـ"تبارك".. تناقصَت درجاتها.

- لحظة لحظة.. مَن "تبارك"؟ هل هي جميلة؟ هل حدثتِها عني؟ أعطني رقمها.

صاحت:

- "مازن"!

- حسنًا كنت أمزح، لا تفقدي أعصابك، ولكن حقًا مَن "تبارك"؟

- "تبارك" يا "مازن"، حدثتُكَ عنها كثيرًا، شغّل فردة الحذاء التي بداخل جمجمتك وستتذكّر.

- آه تذكرتها لم تصفيها لي؛ لذلك لم أتذكرها.

- وأنا لن أصفها؛ لأن الفتاة منتقبة ومحترمة وليست مثلك.

- حسنًا حسنًا اهدئي.. هل نقصَت علاماتها كثيرًا؟ سيؤثر على قبولها في الكلية التي تريد.

- لا أعلم، فنظام الدراسة الجامعية هنا معقد وغريب نوعًا ما، لا يتم التخصّص في مجال معين من أول سنة، هناك في البداية سنة تحضيرية يرتبط مجموعهم بها بالتخصص الذي سيدرسونه فيما بعد، وأيضا هناك.. أووه الكثير من الهراء، لا مزاج لي للشرح.

- حسنًا فهمت، سأذهب إلى النوم الآن، لديّ غدًا حصص باكرة، تصبحين على خير.

أغلقت الخط، ثم نظرت إلى السماء دقائق بائسة تظاهرَت فيها بالعمق وحاولت عَدّ النجوم، عادت إلى غرفتها وأضاءت مصباح الغرفة، ثم أخرجت دفترها العتيق، ترابيّ اللون على غلافه فتاة مغمضة العينين تعلّق كاميرا على صدرها، أسفل الغلاف تناثرت ورود برتقالية، فتحَت أولى صفحاته، بخطٍّ عريض في أعلى الصفحة كُتب:

"كل شيء يبدو جميلًا من بعيد إلى أن تقترب؛ لذلك أنصحك ألّا تحكم وأنت بعيد، وأنصحك ألّا تقترب".

أسفله أول مشهد خطّتْه في حياتها، روايتها الأولى التي تتهرب من قراءتها، أسلوب ركيك وكلمات ضعيفة، قلّبَت الصفحات حتى وصلت إلى روايتها الثانية، قرأَت بدايات بعض المشاهد، ثم قلَبَت الصفحات سريعًا، توقفَت أمام صفحتها المنشودة، بحبر أزرق عريض خطَّت عشرة أسماء في مربعات متباعدة، أسهم تخرج من كل مربع وكلمات خُطَّت إلى جانبه وفوقه، في الصفحة المقابلة داخل قوسان كتبت:

"توقفت لتلتقط أنفاسها، ظلام دامس يبدّد بعضه ضوءُ القمر، صوت دوي الصرخة مستمر داخل أذنيها يردّدُه عقلها عشرات المرات كأنه يستلذّ بتعذيبها، عادت إلى الركض مجددًا، تصطدم وتتعثر، تسقط ثم تعود للركض من جديد، جروحها تنزف ولكنها لا تمتلك ترفَ معالجتها، إلى أين تركض؟ ما وجهتها؟ لا تعلم، المهم أنها تبتعد.."

"اركضي، اركضي كأن شياطين سجين تطاردك، اركضي، اركضي" صرخة دوَّت في الأرجاء، صرخة رجل.. يبدو كصوت "غيث"، زادَت من سرعتها وهى تقاوم آلامها، تعثّرَت من جديد، صُدم رأسها بحجر، ثم أغمضت عينَيْها للأبد.."

"همست "سحر":

- كابوس "نوف".

قلبَت الصفحات ببطء وهي تنتقِي بعض المشاهد بعينها، أطفأت النور ثم تركَت دفترها مفتوحًا وتمدّدَت على سريرها.

*****

قالت "تبارك" بصوتها الهادئ وهي تُناول "سحر" فنجان القهوة العربية بعدما ملأته بالقهوة كعاداتهم في الضيافة:

- "سحر"، عِدِيني أنكِ ستذهبين لطبيب.

ردت سحر معترضة:

- لا يا "تبارك" لستُ مريضة.. الأمر حقيقي تمامًا.

صاحت "تبارك" بنفاد صبر:

- "سحر"، أنتِ أعجبكِ الأمر!

- صراحةً.. نعم!

- أنتِ مجنونة؟

- "تبارك"، تخيلي معي.. فُتح لي باب من الخيال أراه وأسمعه.. أعيش مع شخصياتي وأشعر بهم، سيتيح لي هذا فرصة تعديل الرواية بتفاصيل أفضل، ثم لقد قال لي "غيث" إنهم أصدقائي.. سيساعدونني.

- لنفترض معًا أنهم حقيقة وهذا مُستبعد، ألا تخشينهم؟ "سحر"، بين شخصياتك سفّاحان ومدمن خمور.

- أخبروني أن قدراتهم محدودة.. لن يؤذوني.

- حتى ولو هل من الطبيعي أن تعيشي مع شخصيات خيالية؟ ألَا تريدين التخلص منهم؟

- قالوا إن لديهم سببًا للظهور وحلًّا أيضًا، ولكنهم طالبوني بعدم الاستعجال، كما أنني أيضًا أريد رؤية المزيد.

أغمضت "تبارك" عينيها وزفرت، ثم فتحتهما وقالت:

- عنيدة يا "سحر" لكن هذه المرة ستؤذين نفسك .

- "تبارك"!

- نعم؟

- أنتِ طلبتِ مني الرواية لتتمّي قراءتها، أليس صحيح؟

- نعم!

- ها هي قد جلبتها لكِ الآن أودّ تذكيركِ أن أمامكِ ثلاثة أيام ثم ترسلينها لي.

- حسنًا.

- وأودّ تذكيركِ أن هذا هو اللقاء الأخير لنا سويًا قبل أن أنشغل في شراء الهدايا والتحضير للسفر.

- نعم.

- الآن صبي لي القهوة مرة أخرى وتكلمي في أي شيء آخر.

*****

تسير على قدميها تتأمل الطريق شاردة الذهن، كعادتها عقلها يضج بالآف الأفكار، أخرجها من ذلك صوت رسالة من هاتفها، قرأتها سريعا ثم حركت يدَيْها تكتب: "كيف حال دراستك؟".

ظهرَت علامة القراءة على الرسالة، ثوانٍ ثم رنّ هاتفها، صوته يقول:

- صحيح.. اتخذتُ قرارًا بخصوص دراستي.

- يا ستير يا رب.

- "سحر"، أنا جاد.

- تكلم إذًا.

- سأجزّء اختباراتي على سنتين.

- لماذا؟

- لا أستطيع دخول جميع الاختبارات.

- لماذا؟ كنتَ تقول أنك تمشي جيدًا بدروسك!

- كنت أكذب يا "سحر" حسنًا! كنت أكذب، الآن كل ما أعرفه أنني إذا دخلتُ الاختبارات كاملة هذه السنة فسأودّع حُلمي بدخول كلية الهندسة.

- "مازن"، هل استخرت؟

- سأستخير.

- صلِّ استخارة ثم أخبرني قرارَكَ النهائي.

- إن شاء الله.

- سأغلق الخط الآن لأنني ذاهبة لشراء بعض الهدايا، آه صحيح.. ماذا تريد هديتك؟

- أريد حقيبة ظهر، ولكن الأصلية.

- "مازن"، لا يمتلك أبي خزينة البنك لو لاحظتَ هذا!

- فقط أخبريه أنها لـ"مازن" وسوف يشتري لي أغلى الأنواع.

- اذهب لدروسك.. اذهب.

أغلقت الخط قبل أن يتكلم، رفعت رأسها -منزعجة من قصر قامتها- لتقرأ اسم الدكان الذي تقف أمامه "ها هي بقالة الحمد"، انتظرت لثوان ظهور السيارة الكحلية العتيقة، ثم رفعت الهاتف تتصل بوالداها منزعجة من تأخره:

- اسرع يا أبي، أنتظرك منذ وقت طويل، أريد شراء الهدايا كلها اليوم إن أمكن.

(الفصل الخامس)

تمدّدَت على سريرها وعلى ذراعها غفّت الصغيرة "أبرار"، أزالت ذراعها بهدوء من تحت رأس الصغيرة ثم نهضت، بغرفتها سريران متوازيان يفصل بينهما كومود، وخزانة ملابس كبيرة مقابلة للسريرين، لم يظهر أبطال روايتها بعد المرة الأخيرة، تسعة أيام كاملة لم ترَ أحدهم فيها، تتساءل إحدى خلايا عقلها في حرج "هل كان ظهورهم حقا؟ هل ما زلتِ تحتفظين بقواك العقلية كاملة؟" حركت رأسها تطرد تلك الفكرة ثم أمسكت هاتفها (أيامنا تمر بسرعة، مَن يصدّق أنني لن أراكِ من جديد؟) ابتسمت وهي تقرأ الرسالة ثم كتبت كرد (ولكن سنبقى أصدقاء!).

(لا أظن.. كل واحدة في قارة، ستفرقنا الحياة يا "سحر").. ("تبارك"، أعدكِ لن أسمح لها بذلك).

وضعت هاتفها على الكومود، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت دفترها منه، ثم همست وهي لا تستطيع التوقف عن التفكير بهم "لماذا اختفيتم؟".

صوت طرقات متتالية، فخرجَت من غرفتها ثم فتحت الباب لتراه أمامها بعينيه العسليتين وشعره المجعد الذي يتناثر كالغيمة حول رأسه ، صاح بها:

- "سحر"!.

ضمّته وهي تقف على أطراف أصابعها محاولةً الوصول إلى مستواه، ثم قالت:

- أوحشتني.. لا فراق بعد اليوم، ستملّ منّي.

جلس على الأريكة وهو يقول:

- أين أبوكِ وآسر؟

- نائمان.

- آه كم اشتقتُ لكم..

- أين أمك؟

- في البيت.

- إذًا لماذا لم تأتِ؟

- الناس تأتي في وقت مناسب لو لاحظتِ هذا.

- صحيح.. وأنت! ألست من الناس؟ ألم تلاحظ أنها السادسة صباحًا؟

- أنا صاحب دار.. آتي متى شئت.

- جيد.. صاحب الدار يجلس وحيدًا.

- أين تذهبين؟

- للنوم.

- هيا لا تكوني سخيفة.. اجلسي معي قليلًا.

- عندما أستيقظ يا "مازن"، أنا منهكة من السفر.

*****

يد حانية تمرّر أصابعها على وجهها، فتحَت عينَيْها، رجل أصلع قصير القامة يرتدي عوينات سميكة..

- "آدم"؟!

- أنا هو يا صغيرتي.

نظرت حولها فلم تجد "أبرار"، قال "آدم" بصوته الهادئ:

- أنتِ وحيدة.. لا تقلقي.

قالت وهي تنهض:

- لماذا انقطعَ ظهوركم تسعة ايام؟

- للخيال ظروفه.

- هل ستأخذني معكم إلى عالمكم؟

- تريدين ذلك؟

- نبرتك في الحديث تجعلني أشعر بالنعاس!

- أنتِ من جعلتِني بهذا الهدوء.

- قل برود.

- لست باردًا.. أنتِ من تفترضين أن العالم أصم، نبرةُ صوتِك كفيلة بإصابة من يسمعُكِ بالصمّم.

- أتتطاول الدمية على محركها؟!

- أنتِ من بدأتِ.

- أنا معجبة بكَ كثيرًا يا "آدم"، هل تعلم؟ أشعر أنكَ بوادٍ آخر غير الجميع، حتى موتك كان هادئًا.. وبصراحة كنتُ أتوقع ظهور الجميع باستثنائك.

- سيظهر الجميع يا "سحر" بلا استثناء.. كل شخصيات "كُنّا رفاقًا" ستشارك.

- لماذا أنتم يا آدم؟ كتبتُ روايتَين غير "كُنا رفاقًا"!

- ستعرفين فيما بعد يا صغيرتي.. فيما بعد.

- أريد الذهاب معك.

- اختاري أحد المشاهد.

أطرقَت تفكر، ثم قالت:

- مشهد موتك.

- أكره هذا المشهد!

- أنا أحبه.

نظر إليها طويلًا، ثم اقترب منها وضمّها، شمعة صغيرة تبعث ضوءًا أبيض متراقصًا، "آدم" بمنامة زرقاء يستلقي على سريره مغمض العينين يستحضر طيف محبوبته.. يراها، يشعر بوجودها، تهمس في أذنه همسًا ناعمًا "ستأتي إليّ.. ستأتي إليّ"، تحول الصوت إلى صوت غليظ "ستذهب إليها.. ستذهب إليها"، غُرِس محقن برقبته، جسد يقف أمام السرير عاقدًا يديه على صدره يتكلم:

- احذف أول اسم من القائمة، سيسعدُ الموت كثيرًا بمساعدتنا له في حصاد الرؤوس.

تركت "سحر" الغرفة لتجد نفسها في ذلك الممر من جديد، فتحت أحد الأبواب وأطلّت برأسها، "آدم" يصرخ على غير عادته:

- لقد سئمتُ من هذا الهراء.. يكفي يكفي.

- إلى متى ستظل وحيدًا هكذا؟

- إلى الأبد، لن أقحم نفسي في علاقة سطحية سخيفة.

- من أجل ماذا؟

- من أجل نفسي يا أمي.

- لقد فارقَتْ الحياة يا آدم، اجعلها تفارق قلبك.

- إذا وُجدَت من تجعلها تفارق قلبي أعدكِ أنني سأفعل.

- "آدم"، أنا لن أبقى لكَ طوال عمرك، لقد كبرتُ واقتربتُ كثيرًا من القبر.

- أمي، أرجوكِ لا تقولي هذا الكلام، تعرفين أنه يرعبني.

- يُرعبك ولكنه سيحدث يومًا.

- أطال الله في عمرك.. لن أتحمل أبدًا يومًا لا أبدأه بابتسامتك ولا أنهيه بقُبلةٍ على كفيكِ.

ابتسمَت، ثم قالت:

- هداكَ الله يا بني.. هداك الله.

قبّلَ يدها، ثم خرجت وأغلقت الباب وراءَها، جلس على سريره ثم فتح درج الكومود وأخرج دفتر مذكراته، أزرق اللون مهترئ الغلاف، يمتلكه منذ أن كان طالبًا بالمرحلة الثانوية، دفتره المُخلص الذي يكتب به كل شيء، لم يُرِهِ لأحد في حياته سوى "رهف"، حب طفولته ومراهقته وشبابه، وسيستمر حبها حتى يشيخ، فقط الموت من سينتزع حبها من قلبه، "رهف" كالمرض الخبيث الذي لا يُفارق الجسد إلا بعد أن يفنيه، فتح دفتره وبدأ يبحث عن تلك الصفحة، يحفظ كلماتها عن ظهر قلب، فتحها ثم بدأ يقرأ بعينيه:

"اليوم اعترفتُ لها بحبي، اليوم فتحتُ نافذةَ قلبي وسمحت للكلمات أن تتطاير منه، ضحكَتْ بشدة.. ضاقَت عيناها الفاتنتان ثم احمرّ وجهها خجلًا، وتركتني وركضَت إلى منزلها، ما زالت طفلة، اليوم وأنا في الخامسة والعشرين أُخبرُها بعدما حبستُ الكلمات بقلبي خمس عشرة سنة".

قلبَ صفحات الدفتر سريعًا حتى وجد صفحة أخرى:

"يقولون إن القلب متقلب، وأن المشاعر متغيرة.. الحال يتبدل والذكريات تُمحى، شمعة الحب تُطفَأ إذا مرّت عليها رياح الزمن؛ فلماذا لا يحدث لي هذا؟ صورتها دائمًا ببالي.. عطرها لا يفارق أنفي، لماذا؟ لماذا لا أرى سواها؟ قال قيس (تبتُ إليك يا رحمنُ من كل ذنبٍ، أما عن هوى ليلى فإني لا أتوب)، هو لم يكن يريد التوبة وأنا أطلبها، هل لي بسبيل إلى الخلاص؟ أم يجب أن أُخرج ذلك القلب وأدفنه بجوارها حتى أرتاح، يا "رهف"، لم أعهدكِ أنانية متى ستفارقينني؟ يا "رهف"، إما أن تعودي أو أذهب أنا إليكِ، خمس سنوات مرَّت على خيانتك للعهد.. عهدنا الذي

قطعناه معًا، سنبقى سويًا للأبد، وها أنتِ ذا تركتِني في منتصف الطريق، تركتِني لأكمله وحيدًا حاملًا بقلبي حبكِ وبعقلي ذكرياتكِ، بأنفي عطركِ وبعيني صورتكِ.. يا "رهف" فارِقِي قلبي بالله عليكِ".

هربت من إحدي عينيه دمعة مسحها بباطن كفه؛ شعرت "سحر" بالشفقة عليه، أغلقت الباب، ثم فتحَت بابًا آخر، "رامس" بشرفته يضع سترته الصوفية على كتفه، التفتَ لها ثم تكلم:

- مرحبًا يا "سحر".

- أنت تراني!

انطلقت منها، ثم أمسكت حنجرتها في شيء من التعجب لاستطاعتها الكلام.

- في الحقيقة نعم.

فقالت وهي تدلف إلى الشرفة وتقف بجواره:

- هل تراني دائمًا؟ أقصد في كل المشاهد التي أراقبكم فيها؟

- لا.

- لديّ الكثير من الأسئلة.. الآن أستطيع الحوار وأنت تراني، لحظات أخرى هذا لا يحدث وأضطر فقط إلى المشاهدة.

- "سحر"، أنتِ تحكمين على هذا العالم باعتباره شيئًا يخضع للقوانين.. شيئًا منطقيًا!

- لا قوانين هنا!

- هناك.. ولكننا لا نكلف أنفسنا عناء البحث.

- "را..

لم يخرج الصوت في بقية حروف الاسم، عاد "رامس" ينظر من الشرفة، ثم استدار ليجد تلك الفتاة تنظر إليه، تكلمت بصوت مبحوح:

- ارتدِ سترتك الجو بارد.. ستمرض.

- ألم تأخذي أموالكِ؟ لماذا لم تنصرفي؟ هيا اخرجي الآن.

نظرت إليه متحدية ثم قالت:

- يصيبك التقزز أليس كذلك؟ تتقزّز من نفسك ومني ومن حياتك، رأيتُ بعينيكَ نظرات الصراع والذنب، أريد أن أخبركَ أن لديك فرصة، لا تترك نفسك لهذا المستنقع.. غيِّر من نفسك.

رد بصوت حاد:

- الجميع يقول غيّر من نفسك.. غيّر من نفسك، إن التغيير ليس بتلك السهولة.. ليس لديّ القوة الكافية، ثم لا تمثّلي أمامي دور الواعظة وأنتِ أقذر من القمامة.

- لم أنكر أنني أقذر من القمامة، ولكن أنت تفوقني بكثير، هل تعلم أنت ما الذي يجبرني على ذلك؟ على الأقل أنا لديّ ظروفي لديّ من أعيلهم ومن يتطلّب علاجه الآلاف، أما أنت فماذا لديك؟ لديك ضعفكَ فقط.. ضعفٌ وجبن.

نظر لها "رامس"، ثم رفع يديه وصفعها.

- اغربي عن وجهي قبل أن أدفنكِ هنا.

- نفسكَ أحق بتلك الصفعة.. ربما أهدَتْها القوة.

تركته ثم ذهبت، تناول كأسه من على سور الشرفة، ثم دلف ووقف أمام صورة معلقة، تحمل إلى جانبها الشريط الأسود المميز، استرجَعَ إحدى ذكرياته معه...

((قال له مازحًا:

- ابحث عن غيرها يا أبي ألا ترى ذلك الشيب الذي بدأ يغزو شعرها معلنًا عن بداية احتلال الشيخوخة؟

- لو كنتُ وغدًا مثلكَ لفعلت.

- أنصت إليّ.. تزوج شابة صغيرة تزيّن لك الحياة وتحسّنها.

- "رامس"، أنا أحبها، إن المحبة أرزاق يُلقِيها الله في القلب ولا تخرج منه إلا بمشيئته.

- لم أرَهَا يومًا تعبّر عن حبها لك.

- لأنها مثلكَ لا تعرف المشاعر طريقًا إلى لسانها.

قال باستنكار وهو يشير إلى نفسه:

- مثلي!

- نعم مثلك.. ألا تعرف نفسك؟ لذلك أنت دائم الاختلاف معها، القطبان المتشابهان دائمًا يتنافران.

- والله إنني لا أشبهها.

- والله إنك تشبهها، وبالأخص في صفاتها السيئة.))

هز رأسه بعيدًا يبعد تلك الذكرى، ثم قال:

- لماذا تركتني؟ انظر كيف أصبحت؟ هل يعجبكَ حالي هكذا؟ أبي أنا أحتاج إليك، هل تعلم جزءًا من خطئك هذا الذي أنا به، أنتَ من عودّتني أنك موجود دائمًا، أو لا مجال لفرصة غيابك، أبي أنا أحتاج إلى مساعدتك، هل أعترف لـ"مناي"؟ ربما تهبني القوة، ولكن ماذا إن جرَحَتْني؟ أو ماذا إن سبّبْتُ أنا لها الألم؟ أبي أنا أحتاجك.. ساعدني أرجوك.

تجرع كأسه ثم تناول هاتفه وتمدّد على الأريكة، اختار أحد الأرقام ثم ضغط اتصال، صوتها المبحوح الذي غادره منذ دقائق يجيب:

- ماذا تريد؟

- سأرسل لكِ عنوان شركتي تأتين بعد غد وتطلبين مقابلتي.. "رامس فهد".

- لماذا؟

- سأقدم لكِ فرصة حقيقية حتى لا تكوني أقذر من القمامة.. إن كنتِ حقًا تريدين.

قال تلك الكلمات ثم أغلق الخط وتمدّد على أريكته، أغمض عينيه.

نظرت "سحر"؛ فرأت أعداد سلسلتها المفضلة ملقاة بعشوائية على الطاولة، اتّخذَت المقعد المجاور للطاولة ثم بدأت تتأمل الأعداد في سعادة متجاهلة مسرح الأحداث وما يحدث داخل رأس "رامس" تمامًا، أمام عينيه المغمضتين كان يرى ذلك المشهد بوضوح، بدايته مع هذا الطريق.

((قدّمهُ إليه وقال:

- جرب.. لن تخسر شيئًا.

صوت آخر يقول:

- ستربح الراحة.

رفع عينين واهنتين إلى حامل الكأس وبيد راجفة تناوله، همس صوت بداخله:

- لا لن تتناوله، ليس هذا دينك ولا قيَمَك.

صوت آخر بداخله يرد:

- أنا مرهق وأريد الراحة.

رد الصوت الأول:

- لن تريحك.. لن تريحك.

رفع الكأس إلى فمه متجاهلًا الصوت بجرعة واحدة أنهاه "لن تريحك.. لن تريحك، لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه".

ناول رفيقه الكأس متجاهلًا ما همس به صدره.))

صوت طرقات متتالية وجرس المنزل، فَتحَ عينيه عن تلك الذكرى التي كان يسترجعها، وبغضب اتجه إلي الباب وهو يصيح سأهشّم رأسَك يا أحمق، تركت "سحر" مقعدها ووقفت وراءَه تنتظر رؤيتها، فتح الباب فاختفى غضبه ولاح شبح ابتسامة على فمه، ثم قال:

- أم جواد!

قالت بنظرات حادة:

- أخبرني ستهشّم رأس من؟

- لم أعلم أنه أنتِ، كما أنه لا يوجد من يدُقّ الباب هكذا في الخامسة صباحًا.

- لإيقاظك من نومك الشبيه بالموت يوجد من يفعل هذا.

- حسنًا جيد أنكِ أتيتِ.. المنزل يحتاجكِ.

- منزلكَ دائمًا يحتاجني، أخبرني كيف حالك؟

- كما ترين.

- لستَ بخير كعادتك.

- نعم لست بخير، أنتِ كيف حالك؟

- أنا بخير ولله الحمد والمنة.

ابتسم.. تلك السيدة تحمل رائحة الماضي، بل هي كل ما تبقى له من ماضيه، رضّع منها عندما كان طفلا وتربى في حجرها، تلي أمه في القدر.. لم يعتبرها يوما خادمة، كلماتها ترن بأذنه ("رامس" إن ما يُغضب والداتك يُغضبني، أنا احبك كابن لي.. جوّاد توفي بعد ثلاثة أشهر من ولادته، نصيبه من الرعاية والاهتمام ذهب إليك، يا بني ارجع كما كنت)، أخذ يصغي الى أحاديثها التي لا تنتهي، تتحدث عن حياتها التي حفظها ومشاكلها التي

صمها، يسمعها باهتمام رغم تكرار ما تقوله، دلفت إلى حجرة النوم وهي تقول:

- وزاد علي ألم مفاصلي وألم..

انقطع صوتها وخرجت مقطبة الجبين وقالت:

- ما هذا الذي بالداخل؟ غرفة إنسان أم حظيرة حيوانات؟

- ليست المرة الأولى يا أم جوّاد.

- والمطبخ! ألم أنبهك مرارا ألا تُحدث به الفوضى؟

- "رامس" طفل غير مطيع لا يسمع كلام الكبار

تناولت حذاءه من على الأرض ثم قذفته في وجهه وهي تقول:

- هيا اخرج من هنا واترك لي أمر التنظيف.

- إلى أين اذهب.. اليوم يوم عطلتي

- إلى أحد أولئك الأوغاد الذين تعج حياتك بهم.

- من الصعب أن أجد أوغادًا في الخامسة صباحا!

- إذًا اخرس قليلا واسمح لي بالتنظيف.

- عليك العلم أنني صامت وأنتِ من يثرثر.

- حقًا ولد عديم التربية!

- أنتِ من قام بتربيتي.

قال تلك الكلمات فرفعت قدمها تتناول حذاءها، قذفته ليُصيب وجهه المبتسم، فقال متألما:

- آه.. يا أم جواد آلمتني كثيرًا.

- ذلك حتى تتعلم الأدب.

- المهم، أريد أن تطبخي لي الدجاج اليوم، معدتي تلفت من الأكل الجاهز.

- لماذا لا تتزوج وترتاح؟

- هل هناك من تقبل بي على هذه الحال؟

- أنت من فعلت بنفسك هذا.

- أم جواد من فضلك لا أريد عتابا الآن.

- اغرب عن وجهي إذًا.

- سأبقى هنا وأراقبك، ربما تحتاجين مساعدتي.

تأملتها "سحر" وهي تستعيد صورتها الملونة من ذاكرتها، يدثرها السواد إشارة إلى أنها أرملة وستبقى كذلك للأبد، عينان واسعتان يزينهما الكحل، حاجبان طويلان منسقان ورموش طويلة تصل إلى بداية الحاجب، فقط إحدى الشعيرات كسرت القاعدة واكتست باللون الأبيض، امرأة من النوع الذي يزيده السن جمالا، قالت "أم جواد" مخاطبة "رامس":

- ثم قالت لي كلمة بذيئة أخلاقي لا تسمح بذكرها، المهم أنني جعلتها تلملم كرامتها من تحت حذائي في نهاية المطاف.

قال وهو يتناول الشطيرة التي أعدتها له:

- منذ متى هذا الشجار؟

- أسبوعين.

- جارتك هذه لا تجد شيئا تفعله سوى الشجار معك فيما يبدو.

- امرأة قليلة أدب، المهم متى ستذهب لرؤية والدتك؟

- لن أذهب.

- "رامس" والدتك قلبها ينفطر عليك.

- لم أنسَ صفعتها على وجهي.

- ولماذا صفعتك؟ ألا تتذكر؟

توقف عن قضم الشطيرة ورد بوجه عابس:

- أم جواد هل يصعب عليك كثيرا عدم مضايقتي؟

- "رامس" أنا أحبك.

- وأنا أعلم.

- هداك الله يا بني.. هداك الله.

خرجت "سحر" وتركت المشهد خلفها، سارت بضع خطوات داخل الممر، أمسكت بمقبض أحد الأبواب، وقبل أن تفتحه ظهر أمامها "رامس" يقول:

- "سحر"، لنعدْ الآن.

(الفصل السادس)

"رامس" إلى جانبها يتناول شطيرة جلبتها له يرتدي بذلته السوداء وحذاءه اللامع وعلى يده ساعته الفخمة، تأملت ملامحه قليلا، شعره فاحم السواد ناعم كخيوط الحرير، له عينان بنيتان وأنف كبير تتربع أسفله شفتاه الدقيقتان، شعرَت بالرهبة منه، فقالت:

- هل تعلم.. منظرك هكذا مهيب.

- أعلم ذلك؛ لذلك أسيطر على موظفيني.

- هل الزمن موحّد بين عالم الحقيقة و..

لم تعلم بماذا تُكمل؛ فقال:

- الساعات لدينا ثَوان أو أقل لديكم، أريد أن أسألكِ سؤالًا.

- غريب! أنت تستأذن؟

تجاهل كلماتها، ثم قال:

- ما الفكرة التي دلّتكِ على كتابتنا؟ مجموعة من الأصدقاء يعملون معًا، جنسيات مختلفة وأديان مختلفة، وآراء وثقافات مختلفة، بينهم من يملك الملايين ومن بالكاد يكفيه راتبه، هناك المُنحلّ والمتدين والأناني والسادي، ما الذي أوحى إليكِ بالفكرة؟

ضيّقَت عينيها في محاولة للتذكر، ثم قالت:

- الحقيقة لا أذكر ما الذي قادني إليكم.

ثم اردفت وهي تعد على أصابعها:

- "سمير" و"رُبا" نصارى من جنسية واحدة، أنتَ من نفس الجنسية ولكنك مسلم، و"غيث" مسلم من جنسية ثانية، "آدم" مسلم من جنسية ثالثة، "نوف" نصرانية تنتمِي لبلد رابع، "فهاد" بوذي من بلد خامس،

"مُناي" مسلمة جنسيتها مثل "نوف"، وكذلك "إيلاف" مثيلة لـ"مُناي" و"نورس" لا دينيّ.

- أنا أعلم ذلك، لا تحتاجين لإخباري "سحر"، أنتِ لم تضعي لنا جنسيات؟ فقط أخبرتي أن "نورس" روسي، ماذا عن البقية؟

- لم أضع لكم جنسيات! حقًا لم أضع، على كل حال لا أظن أن سياق الرواية يحتاج لذكر جنسياتكم.

- من حقي أن أعلم ما جنسيتي.

- اعتبر نفسك مصريًا يا "رامس" إذا كان يناسبك الأمر.

- لا يبدو لي مذاقُ الاسم مصريًا!

- اختَرْ أي جنسية تناسبك واعتبر نفسك منها.

حروف زرقاء تأتي من اللامكان تصبّ في قالب معين إلى جانب "رامس".. تشكّل، ثم قال بصوته الغليظ:

- مرحبًا.

قال "رامس":

- "فهاد"! لماذا ظهرت؟

- أردتُ رؤيتها.. جميلة "سحر"، لا تستحقين ما يحدث لك؟

- وما الذي يحدث لي؟!

- هذا.. نحن ما يحدث لك.

قالت مستنكرة:

- لا أفهم.

قال "رامس":

- "سحر"، هل تأخذين كلام أشد شخصياتك حُمقًا على محمل الجدية؟

طُرق باب غرفتها ثم دلف "مازن"، اختفيا من أمامهما، قال "مازن":

- لماذا تجلسين وحيدة؟

- استيقظتُ قبل دقائق.

- ألن تخرجي للسلام على أمي؟

- هي بالخارج!

- نعم، منذ مدة.

- حسنًا.. اخرج أنت وأنا سأبدّل ملابسي فقط وأتبعك.

- هل هي غريبة ستتأنّقين لمقابلتها؟

- لا دخل لك.. اخرج فقط.

خرج وتركها، ارتدَت ملابسها على عَجَلٍ وخرجت، أربعينية سمراء ترتدي الأسود، قطعَت حديثها عندما رأت "سحر"؛ فنهضت لتضمها:

- أوحشتني كثيرًا يا "سحر"، كيف حالكِ يا ابنتي؟

- أنا بخير، كيف حالكِ أنتِ يا خالة "أماني"؟

- بخير والحمد لله، أخيرًا أتيتِ لتنتشلِيني من الوحدة، أريدكِ يومًا في بيتي.

- أكيد إن شاء الله.

*****

وقفت في شرفتها تنظر إلى السماء، أسرتها تفترش أرضية الشرفة، صحنٌ به تفاح وإلى جانب الصحن سكين، قالت أمها:

- هل تريدِين يا "سحر"؟

- لا، لقد أكلتُ الكثير.

سألها "آسر":

- "سحر" صحيح متى سيُفتَحُ باب التقديم للجامعات؟

ردت وهي تلكز إحدى الفتاتين حتى تفسح لها مكانًا تجلس عليه:

- أطال الله في عمركَ! بعد ظهور نتائج الثانوية المصرية، وبعد تقديمهم وتنسيقهم.

- ومتى ستبدأ اختباراتهم؟

- أظن بعد شهر.

- وستنتظرون النتيجة؟

- النتيجة والتنسيق أيضًا.

قال بانفعال:

- والله هذا ظلم، لماذا ننتظر؟

- اهدأ.. هذا هو النظام يا "آسر"، ثم لا تقلق, كليتي مضمونة بإذن الله.

قال الأب:

- بإذن الله.

*****

على ضوء كشاف كهربائي يغمر السطح، أمسكت بالقلم، عشرات التعديلات تقوم بها، تضيف التفاصيل وروائح الأشياء.. "نوف" لا ترتاح لـ"فهاد"؛ لذلك لم تقبل دعوته إلى الغداء، قلبَت الصفحات حتى وصلت لحوار "مُناي" مع والدتها، أدخلَت سنًا رصاصيًا إلى القلم، تمحو بعض العبارات وتضيف غيرها، والدة "مُناي" لا تحب أصدقاءها، تعترض على الصداقة بين الجنسين بشكل كبير وبين أصحاب الأديان المختلفة..

- لو كنتِّ فتياتٍ لتقبّلتُ الأمر يا "مُناي"، ولكنهم رجال، وأيضًا من دين مختلف.

- أمي، لقد دعوتهم على الغداء، أنتِ بالتأكيد لا تريدين إحراجي.

- "المرؤ على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل".

والدة "مُناي" لا توافق على السفر، "رُبا" تجلس معها وتحاولُ إقناعها بأن الرحلة فتيات فقط.

تذكرَت بعض المشاهد التي رأتها ثم عادت تكتب.. والدة "مُناي" توافق بعد جهد، "رامس" يقبل السفر ويدفع تكاليفه لـ"غيث".

وضع يديه على عينيها، شمت رائحة عطره فقالت:

- "مازن" يا سخيف.

قال وهو يزيل يده ويجلس إلى جانبها:

- ماذا تفعلين؟

- أُجرِي بعض التعديلات على الرواية، كيف دخلت؟ المفترض أن أبي أغلق الباب الخارجي للمنزل؟

- أعطتْنِي أمكِ نسخة من مفتاح المنزل الخارجي منذ فترة.

- لماذا لا تستذكر؟ اختباراتك تقترب.. لا تتهاون.

- انتهيتُ قبل قليل من الاستذكار.

- والدتكَ تعاني من الوحدة.. ألا تجلس معها؟ لم أرد سؤالها عنك لأنها بالطبع كانت ستشتكيك إلي وتعلم أنني لا أحب الشكوى وكثرة الحديث..

- أنا معظم الوقت إما في حصص أو أستذكر بغرفتي.

- آه.. وفقك الله.

- بمناسبة الرواية لدي تعقيب على الجزء الذي أرسلته لي.

- ما هو؟

- أنتِ حمقاء هذا أولًا، خطُّكِ قبيح هذا ثانيًا، كيف تسمّين شخص روسي "نورس"؟ هاه!

- أنت حمار هذا أولًا، تركيزُكَ منعدم هذا ثانيًا، لو قرأتَ الرواية بتركيز دجاجة لأدركت أن "نورس" والداه تزوجا وأنجباه في بلاد عربية؛ لذلك يتحدث العربية كأهلها ولم يرث من قومه سوى ملامحه.

- وبالنسبة لـ"فهاد"؟

- لم أذكر جنسية "فهاد" قط ولا أصله، ثم نفس الأمر ينطبق عليه.. وُلد في بلد عربي.

- آه لم تذكري، ولكنك لمحتِ أن أصله غير عربي.

- هل من تعقيبات أخرى؟

- لا.

أغلقت دفترها، ثم ثنت ركبتيها وحاوطتهما بذراعيها وقالت:

- هل تظن أنني سأتأقلم هنا؟

- إنها بلدك.

- ولكنني لم أنشأ هنا.. لا أصدقاء لي سواك، لو أحصيتُ عدد أيامي هنا لن تبلغ الكثير، فقط إجازات قصيرة كنت أقضيها هنا.

- تعتادين وسيمر الأمر.. تذكّرِي أن عائلتك هنا يا "سحر"، لن تشعري بالغربة بعد الآن.

- كنت أحيانًا أشعر بالوحشة هناك، اعتدت إرجاع ذلك لغربتي، أخاف أن أشعر بها هنا؛ فلا أجد شماعة أعلق عليها الأمر.

- ستشعرين في البداية.. ريثما تكوّنِين صداقات سيختفي الأمر.

هزّت رأسها موافقة، شبّك "مازن" أصابع كفيه معًا ووضعهما أسفل رأسه، ثم تمدد على الأرضية:

- "سحر".

- نعم؟

- أنا جائع!

- تمتلكُ مالًا؟

- نعم.

- هيا لنطلب طعامًا إذًا.

- وهل تمتلكين أنت؟

- أمتلك لا تقلق.. بخيل.

- لستُ أبخل منكِ.

(الفصل السابع)

نظر إليها نظرة طويلة.. نظرة كادت أن تنطق من فرط صدقها، ثم تكلم بصوت مبحوح:

- كنت أحبكِ، طوال تلك الفترة كنت أحبكِ، ولكنك لم تشعري أبدًا بي، أختلسُ النظرات إليكِ من حين لآخر، كنتِ بمثابة الكحل لعينيّ الذابلتين.

نطقت وهي تتلعثم:

- "فهاد "ول.. لكنك..

- أعلم ما ستقولين، لم ألمح لكِ يومًا ولم أخبرك، كيف يتسنّى لي إخبارِكِ وأنا أعلم أنك تكرهينني ولا ترتاحين لي، بل و تخشينَني كثيرًا، قد تتساءَلين لمَ أخبرك الآن؟ حسنًا.. أخبركِ لأنني لم أعد أقوى على الكتمان، هل لي أن أطلبَ منك شيئًا، شيئًا واحدًا فقط لطالما حلمتُ به، هل يمكن أن تعانقيني؟

- ولكن يا..

قاطعها وقد زادت بحة صوته:

- فقط لثوانٍ.. أريد أن أشعر بذلك الدفْء الذي طالما حلمتُ به فقط لثوانٍ.. أرجوك.

تأملته بمشاعر مختلطة تتأرجح بين الشفقة والخوف، استمر صمتها فاقترب منها وعانقها، ظلت يداها مفرودتَين إلى جانبها وهي تسمع صوت أنفاسه الملتهبة، فهمس بأذنها:

- الموت قادم.

*****

منزلها بالأزرق والأبيض، غرفتها، السريران المتوازيان والكومود الذي يفصلهما، هي نائمة على أحد السريرين، غيّرَت نومتها إلى الجانب الأيسر لتصبح مواجهة للسرير الآخر.. "من هذا النائم؟ بل من النائمة؟" ليست إحدى أختَيها، نهضت لتتفحص ذلك الجسد عن قرب، ظهره مقابل لها، حرّكَتْه لترى وجه النائم، لم تستطِع تبيّن الملامح، سائل أزرق يغطي الوجه بالكامل، انزعجَت وهي تردد "جثة في غرفتي!"، اتجهت ناحية باب غرفتها وفتحته لتجده يجلس على المقعد يتابع التلفاز.. صرخت به:

- "فهاد"، لم أكتب أنا هذا لايجب أن يتم الأمر هنا.

قال من دون أن يحرك عينيه عن ذلك المشهد الذي يتابعه على التلفاز:

- لستِ المتحكمة الوحيدة يا صغيرتي.. للأسف لسْتِ الوحيدة.

- أنا الأقوى!

- ولكنكِ لا تعلمين.

صوت رنين المنبه يخترق أذنيها، بحثَت عنه بيدٍ واحدة وأطفأته، ثم نهضَت وجلست من دون أن تفتح عينيها، يد لكزتها في كتفها، فتحت عينَيها تتبين الفاعل.. فتاة سمينة شعرها بالكاد يصل إلى أعلى كتفيها، تغطي آثار حبوب الشباب وجهها في كثافة، ابتسمت بود ثم قالت:

- صباح الخير يا "سحر".

- ماذا تريدين يا "إيلاف"؟ هل أنتِ من ضبطتِ هاتفي على السابعة صباحًا؟

- عرفتِني؟.. لم أتوقع هذا.

- أنا من وصفتُ ملامحكِ يا "إيلاف" لو لاحظتِ هذا، ماذا تريدين؟

جسد " سمير "يتشكل بجانب "إيلاف"، ثم يقول:

- تريدكِ أن تأتي معنا.

- ألا ترونَ أن الوقت باكر جدًا؟ لا أريد..

قال "سمير":

- ليس من حقكِ من الآن أن تريدي يا "سحر".

طار النعاس من عيني "سحر"، ثم قالت:

- نعم؟! ليس من حقي أن أريد؟ لماذا؟! عليكم العلم أنا من أتحكم بكم وليس أنتم.

جسد يتشكل أمامها مباشرة، "ربا" ترفع إصبعًا محذرًا في وجه "سحر" وتقول:

- لا أنصحكِ بإغضابنا.

قالت "إيلاف" وهي تنهض:

- مطيعة "سحر" وستأتي معنا.

*****

الأزرق والأبيض من جديد، "إيلاف" تنظر إلى "ربا" يختلط في عينيها الدمع، ثم قالت:

- ليس من حقكِ أن تصفيني بالبقرة يا "رُبا".

- أنا لم أقل إلا الصدق... تأكلين كالأبقار وتبدين مثلهم، وتتصرفين كأنكِ واحدة منهم.

تدخّلَ "سمير" محاولًا تهدئة الوضع:

- "رُبا" "إيلاف"، ليهدأ كل منكما، الأمر لا يستحق.

نطقت "إيلاف":

- ألا ترى يا "سمير"؟ "رُبا" دائمًا تتلذّذ بإهانتي، لم أفعل شيئًا يستحق.

- بل أنتِ تغارين مني.

- أغارا! ولمَ؟

- لمَ؟! انظري إليّ ثم إلى نفسك وستعرفين.

صاح "سمير":

- "رُبا" يكفي، وأنتِ يا "إيلاف" تعالي معي.

بحثَت "سحر" عن باب المخرج وبعد أن وجدته فتحته لتجد "نورس" أمامها يبتسم..

- "نورس"، ابتعد عن طريقي، أريد ممر المَشاهد.

- وصولكِ إلى ممر المَشاهد لا يحدث إلا بموافقتنا.. ادخلي.

- لن أدخل، ابتعد عن طريقي.

- سأصطحبكِ إلى المشاهد التي أريد، لترِي حقًا مقدار الروعة التي صنعها قلمك، ضمها ثم تلاشى ما كانت تراه.

غرفة يملؤها الأزرق القاتم الذي يمنع الرؤية كناية عن الظلام، فتاة ممددة على السرير وإلى جانبها شمعة تبعث ضوءًا متراقصًا، فتحَت الفتاة عينَيها لتجد ذلك الجسد الضخم يقف إلى جانبها، حاولت النهوض فمنعتها يداها المكبلتان إلى السرير، قدماها قد ضُمّ بعضهما إلى بعض ورُبطا بإحكام، حاولت التحدث، ولكن شريطًا لاصقًا حال بينها وبين ذلك، بعد أن فشلَت محاولتها ابتسم، ثم تحدث بلهجة ودودة:

- أخيرًا استيقظتِ يا جميلة، كنتُ أنتظر استيقاظك، دارت الدائرة وحان دورك، هل ترينَ هذا القبيح الممدّد إلى جانبك؟

تنبهت أن جسد"غيث" الضخم يغفو بجوارها، أشار إليه ثم أردف:

- سنطلبُ منكِ طلبًا بسيطًا جدًا، تحفظين بتنفيذه رأسك.

قاطعه صوت آخر غليظ يدلف إلى دائرة الضوء:

- اقتليه.

اردف الواقف بحوارها:

- كما سمعتِ يا عزيزتي، هذا من حسن حظكِ أنكِ استيقظتِ أولًا، لو استيقظ هو أولًا لكانت فرصة الحياة من نصيبه.

نظر إلى صديقه وأشار له بعينيه؛ فوضع الأخير مسدسًا بيدها وفك قيدها قليلًا، ثم وجّه فوهة المسدس إلى رأس "غيث" الغافي بجوارها، سيطرَ على الفتاة صمتُها، حتى إن دموعها لم تترك عينَيها وكأنها مذعورة لا تريد الفرار، أغمضَت عينَيها وحاولَت ضغط الزناد، فتحَتْها بعد لحظات ونظرت إليه طالبة الرحمة، قال صاحب الصوت الغليظ:

- أظن المهمة صعبة عليها، ليقم بها أحدنا.

رد الآخر:

- لا لا.. فتاتي مطيعة، ستفعل هي ذلك.

استمرت في النظر إليه، ظل صامتًا يحدّق بها بنظراتٍ ثابتة، ثم قال بلهجة صارمة مخاطبًا صديقه:

- اتركنا واخرج، ابقَ بجانب الباب، أي صوت غير طبيعي ادخل فورًا.

استجاب لأمره وخرج، ظل واقفًا مكانه، ثم توجه إليها وفكّ قيد يدها بالكامل، ثم وجه يدها بفوهة المسدس إلى قلبها:

- ستستقر الرصاصة هنا.

ضغط على يدها بقوة، أفلتَت دمعة من إحدى عينيها.

- تؤ تؤ تؤ ليس الوقت وقت بكاء، حسنًا تريدين الكلام معي سأسمح لكِ، تذكّري.. أي صرخة المسدس على صدرك ويداي تتحكم.

أزال الشريط اللاصق؛ فقالت بلهفة:

- أختي! ماذا فعلت بها؟

- تهتمين لها؟

وجّه يدها بعنف باتجاه رأس"غيث" ثم أردف.

- افعليها إذا كنتِ تريدين رؤيتها، هيا فقط اضغطي الزناد.

أجهشَت بالبكاء؛ فأعاد توجيه المسدس إلى صدرها، وقال بعينين جاحظتَين:

- حسنًا.. لتضغطيه هنا.

قالت بصوت باكٍ:

- سأفعل ما تريد، فقط أمهلني بعض الوقت.

- ليس هناك متسع منه للأسف.

وجّه يدها الى الرأس من جديد، ثم قال:

- إنها الأخيرة.. هيا.

كوّرَت يدها الأخرى المقيدة بطريقة تجعل الإبهام تحت بقية الأصابع، ظلّت دقائق تحاول ضغط الزناد، ثم قالت:

- لا أستطيع.. أرجوك.. أرجوك.

أعاد توجيهه إلى صدرها، ثم قال:

- بالطبع لا تستطيعين.. يسيطرُ عليك الضعف البشري، ضعفُ المشاعر التي تقيّدكم وتسوقكم أمامها كالخراف، هنا تستطيعين.. هيا.. اضغطي الزناد.

- "نورس" أرجوك.

قال وهو يحدق بها وقد اتسعت عيناه:

- اضغطيه.

زاد بكاؤها حتى ارتفع، وضع يده الأخرى على فمها، ثم وجّه يدها باتجاه الجسد الغافي وجعلها تضغط الزناد إكراهًا.

- لم تضغطيه بإرادتك فضغطتِه رغمًا عنكِ، لستِ أفضل مني، تهانينا.. أصبحتِ قاتلة!

وجّه المسدس إلى صدرها، ثم قال:

- والآن ستقتلين نفسك، صدقيني، إن لم تفعلي سأجعلكِ تتمنين الموت.. هيا.

استمر هكذا لدقائق، رفع يده حتى غطّى أنفها.

- تأبين ذلك، تأبين إلا أن تكوني أفضل مني، لستِ أفضل، أنتِ أضعف.. أضعف، هل تسمعين؟ أضعف.

ظل يردد تلك الكلمات حتى توقّفَت عن التنفس وأغمضت عينيها، حدّق بها لدقائق ثم غادر الغرفة.

خرجت "سحر" وراءَه فالتفت لها، قالت عندما أدركت أنه يراها:

- تظن مشهدًا هكذا يرعبني؟ أنا من صنعتُ هذا بخيالي.

وضع سبابته على فمه وقال:

- هششششش.

اقترب منها وهمس بأذنها:

- الأصوات تزعج الموتى.

طوّقَ جسدها بذراعه، فتلاشى المشهد من حولها لتجد نفسها بين ذراعيّ "فهاد" يهمس في أذنها:

- الموت قادم.

يدلف "نورس"، "فهاد" يقيدها، "نورس" يضع الشريط اللاصق على فمها، عقلها يعمل، تحاول فهم ما يحدث، هذا المشهد مشهد قتل

"نوف" الذي يلي مشهد قتل "نورة " و" غيث" لماذا تعيشه هي؟ كشاف كهربائي يدوّي يضيء الغرفة، حركت عينيها باتجاه المرآة، لا مرآة! فكرة تصيح داخل عقلها "كانت هنا مرآة أين ذهبت؟" "إنها بالجهة اليسرى يا حمقاء.. اليسرى"، حركت عينيها يسارًا لترى جسد "نوف" الصغير يقاوم الوحشَين، ملابس زرقاء وبيضاء، لا أثر لـ"سحر"، إنها داخل "نوف".. تعيش ذعرها وخوفها، حاولَت السيطرة على مشاعرها (لا بأس يا "سحر".. لا بأس؛ "نوف" "هي من تعذب لا أنتِ)، الخوف يسري في أطرافها، إنها فاقدة للسيطرة تمامًا، هذه المشاعر لـ"نوف", ولا تستطيع تغيِيرها، حملها "غيث" ثم وضعها في منتصف السرير وبعدها أطفأ "نورس" المصباح الكهربائي، و أشعل شمعة عملاقة، ابتسم ثم قال:

- أحب الشموع تضفي تأثيرًا محببًا إلى النفس، آه يا صغيرتي المسكينة، تتساءلين بالطبع عن سبب ما فعلناه، الرعب يجري مع دمائك يضخه قلبك إلى سائر أعضائك، يعمل عقلك كأكفأ ما يكون ليجد المخرج، تتوسلين إلى الرب في داخلك أن ينقذك، ولكنه لن يفعل، لن يفعل يا عزيزتي.

سأل "فهاد":

- ماذا سنفعل بها؟

- هل تُعجبك؟

- ليست هدفي.

- صَبّر نفسك بها.

- أفضل في إرواء العطش الماء البارد، الماء الساخن يقتل اللهفة.

- هيا، سأستمتع أنا كثيرًا.

- لا، إن أردتَ أنت فلتفعل.

- اتركها لي واخرج.

- هذا "نورس" الذي أعرفه.

ترك "فهاد" الغرفة ثم خرج، توجه "نورس" إليها وجلس إلى جانبها، ثم قال:

- أجمل جزء عندي عندما أرى الرعب في عيني أحدهم، كيف تكون الحياة دونه؟ بل كيف يمكننا تفسير اللذة إذا لم تكن نظرة رعب من أحدهم تجاهك؟ أنتِ مستعدة الآن لتقبيل قدمي حتى أتركك وشأنك.. صحيح؟ ما هي أعظم كوابيسكِ "نوف"؟ الاغتصاب؟ القتل؟ التعذيب؟

نهض من جوارها ثم وضع يديه خلف ظهره، وراح يمشي خلال الغرفة.

- ماذا إن دمجناها معًا؟ أم لا لا.. عليّ أن أمتلك بعض الرحمة، التعذيب مع تمني القتل منكِ سيكون رائعًا، يدخل ضمن دائرة التعذيب الاغتصاب لمعلومك.

ثم قال وهو ينزع قميصه:

- سنستمتع كثيرًا.

دمعات تسقط على خدي "نوف"، عقل "سحر" يصيح بالأفكار، "افقدي الوعي.. افقدي الوعي أيتها الحمقاء افقدي الوعي، هكذا تعودين لعالمك، يا رب.. يا رب ساعدني، عليّ أن أخرج من هذا الجسد.. سأخرج، هذه ليست أنا"، أغمضَت عينَيها وراحت تتحرك بعشوائية، "أنا الآن جزء من الشخصيات، يمكنني تغيير الأحداث.. يمكنني"، "نورس" مستمرّ في نزع ملابسه، زحفَت إلى جانب السرير ثم سمحت لنفسها بالسقوط ليصطدم رأسها بحافة الكومود، فقدت الوعي، لتفيق على سريرها وقد عادت الألوان، أمسكت هاتفها ترى الساعة "السابعة وخمس دقائق"،

ركضَت إلى مكتبها تفتح دفترها على مشهد "نوف" و"نورس"، تحرّك يدَيها بين السطور.. "نورس" يخلع بنطاله، "نوف" تزحف إلى طرف السرير، تسقط أرضًا ثم يصطدم رأسها بسنّ الكومود وتفقد الوعي، "نورس" يصيح: "سأعيدك إلى الوعي، لا متعة بدون نظرات الرعب".

- لقد تغيرت الأحداث! أنا كنت هناك داخل جسد "نوف".

(الفصل الثامن)

تتناول الإفطار بعقل شارد، والدُها يلقِي بعض النكات حول مظهر شعرها المنتفش، تبتسم بلا اكتراث وهي تجبر نفسها على بلع الطعام، الطعام شيء مقدّس واجتماعهم معًا على المائدة أكثر تقديسًا، يجب أن تجلس مع عائلتك وتأكل حتى لو كان رغمًا عنك، النائم يستيقظ والشبعان يجب أن يجوع، هذه إحدى قوانين العائلة التي يجب ألّا تُكسَر، انتهَت من طعامها لتدخل غرفتها سريعًا، كما توقّعَت ظهر "غيث" فور دخولها.

- "غيث"! علّكَ علمتَ ما حدث.

- علمتُ يا صغيرتي، لا تقلقي لن يتكرر.

- "نورس" حبَسَنِي بجسد "نوف"، كان يريد.. يريد...

تحشرج صوتها وهي تتذكر ما حدث، ضمّها "غيث" إلى صدره، ثم قال:

- لن يحدث هذا من جديد.. أعدُك.

دفعته بعيدًا عنها، ثم قالت بحدة:

- لا أريد ظهوركم مرة أخرى، لا أريد أن أذهب معكم.. سأمزق الرواية، سأمزقها وأمحوكم من ذاكرتي.

أمسك بيديها ثم قال:

- "سحر"، اهدئي.. "نورس" مريض، أنتِ تعلمين ذلك، سأضمنُ لكِ عدم ظهوره من جديد، لا مشاهد له معك.

- ليس هو فقط، لا "رُبا" لا "فهاد" لا "إيلاف" لا "سمير"، هم من أخذوني رغمًا عني.

- لكِ ذلك، لكِ ما تريدين، والآن تعالي معي مشهد مريح كتبتِه بقلمكِ تُبرهِنِين به على معنى الصداقة الحقيقي.

حاوطها بذراعيه فاختفت ملامح غرفتها، "رامس" يجلس إلى مكتبه وأمامه تجلس مساعدته "مُناي".

- حسنًا وماذا عن الاجتماع "مُناي"؟

- سيكو..

- "رامس"!

ملهوفًا مذعورًا دلف "غيث"، يصرخ باسم "رامس" وكأنه طوق النجاة المهدَى إلى غريق، "مُناي" ترمق "غيث" بذهول، ملامح مجهدة وثياب عشوائية بلا ترتيب، يكاد الدمع ينساب من عينيه، وَثَبَا من مقعدهما، وتكلم "رامس":

- ماذا بكَ يا "غيث"؟

- أنا في مأزق.

نطقت "مُناي" بنبرة قلقة:

- ماذا هناك؟

قال "غيث" بصوت باهت انقطع مرارًا في نُطق الكلمات:

- إنها مريضة وأنا لا أملك..

انفجر باكيًا كطفل نُزعَت منه لعبته، مرّت دقائق فشل فيها "رامس" و"مُناي" في إسكاته، صرخ "رامس":

- كُفّ عن البكاء كالأطفال وأخبرنا ماذا حدث؟

اقتربت "مُناي" من "غيث"، وقبل أن تنطق دفعها "رامس" بعيدًا عنه، أمسكه من ذراعه ثم سحبه إلى خارج الغرفة فالمبنى، دخلا إلى

السيارة وجلس "رامس" أمام عجلة القيادة وإلى جانبه "غيث"، قال "رامس":

- استعِدْ هدوءك وأخبرني ما تحتاجه حتى أستطيع تقديمه لك.

*****

عينان مفتونتان ترمقانه بانبهار، بذرة الحب التي ألقاها "رامس" بدون قصد في تربة قلب خصب تنمو الآن، "رامس" يُحدّث نفسه أنه انبهار أطفال، "لن تتعدى نظراتها ذلك يا "رامس" لا تقلق"، قال "غيث" بصوت استعاد توازنه:

- حسنًا.. إن الطبيب يقول إنها بخير وحالتها مستقرة الآن.

- الحمد لله.

- عُد أنت الآن إلى منزلك يا "رامس"، لقد تجاوزَت الساعة الواحدة صباحًا، لابد أنك مرهق.

- سأعود الآن بعدما اطمأنّ قلبي عليها.

- خُذ "غدي" معك إلى المنزل.

- "وغسان"!

- سيبيت معي.

- كما تريد، هيا يا "غدي".

جلسَت في المقعد الخلفي، كان "رامس" يراها تختلس النظرات له من خلال المرآة، قالت:

- كم عمركَ يا رامس؟

- ولمَ السؤال يا صغيرتي؟

- مجرد سؤال خطر على بالي.

- سبعة وعشرون عامًا.

- أنت تكبر أخي بعامين إذًا.

- صحيح.

- هل سبق وأن شعرتَ بالحب؟

أجابها في برود:

- لا.

- أبدًا أبدًا؟!

- أبدًا أبدًا.

نظر إلى وجهها خلال المرآة، "إنها جذابة، ما رأيك؟ نوع جديد لم تجربه من قبل"، هز رأسه يطرد تلك الفكرة التي أثارت اشمئزازه.. "هل جننت؟ إنها طفلة في سن أخواتك، أخت صديقك يا "رامس"، أنتَ لا تنجّس الطهارة أبدًا، عد إلى رشدك ألا بارك الله فيك"، قال:

- هل تعلمين أن لي ثلاث أخوات؟ إحداهن هي "أثير" في الثانية عشر من عمرها، تصغركِ بعامين.

- هل هي جميلة مثلك؟

- أجمل مني كثيرًا.

اقتربت منه وهي تقول:

- لا يوجد من هو أجمل منك.

طبعَت قبلة على خده الأيمن، تسارعَت نبضات قلبه، "ما رأيك؟ فكّر مرة أخرى"، تلك الفكرة المقززة من جديد! "يجب إيقاف هذه المعتوهة عند حدها.. يجب"، توقّفَ فجأة إلى جانب الطريق، ثم نظر لها بحدة عبر المرآة وقال:

- ما هذا الذي فعلتِه الآن؟

نظرت إلى الأرض في خجل ولم ترد، صاح بها:

- "غدي" أريد ردًا، ألا تعلمين أن هذا عيب؟

- أعلم، ولكن...

- من دون لكن، أنتِ أختٌ لي، وأختي إذا فعلَت هذا تُعاقب.

- أعتذر.. لن أكررها.

- صادقة يا صغيرتي.

- كفّ عن ندائي هكذا، لستُ طفلة.

- كم فرق السنوات بيني وبينك؟

صمتت تفكر؛ فأردف:

- ثلاث عشرة سنة؛ لذلك أنتِ صغيرتي.

- "رامس"، أنا أحبك.

- وأنا، ولكن كأختٍ لي.

- أنت تعلم أني لا أقصد هذا.

- إن ما تشعرين به ليس حبًا، هو انبهار.. مشاعر مزيفة، شخصٌ فعلَ ما عجز "غيث" مَثلُكم الأعلى عن فعله وأنقذ أمك، كم مرة رأيتني في حياتك؟

أطرقَت تفكر؛ فقال:

- مرتين، فقط مرتين.

رفع سبابته ثم قال:

- أول مرة كانت عندما دعاني "غيث" للعشاء في منزلكم.

ثم رفع الوسطى وأردف:

- وهذه هي المرة الثانية، كيف ستحبينني إذًا؟

- هو.. هو الحب من أول نظرة.

- أنتِ صغيرة ولا تفهمين ما تقولين يا "غدي".

استمر الصمت لثوانٍ؛ فقال يلتمس وميض فكرة أضاءت في عقله:

- "غدي"، تعلمين أنني صاحب المكان الذي يعمل به أخوكِ، وقبل هذا فأنا صديقه، إذا علم أخوكِ بهذا الذي تقولين سيسيء الظن بي، سيعتبرني وغدًا ويتشاجر معي ويترك العمل، سيصبح بلا مهنة، وعليكِ العلم أنه أبدًا لن يجد وظيفة براتب مثل الذي أقدّمه له، تذكّرِي أنكم غرباء.. هذه ليست بلادكم، وأنا أمثّل عونًا كبيرًا لكم، من دوني لم تكن لتُجرِي والدتكم هذه الجراحة، من دوني ربما كانت متوفاة الآن.

تجمّعَت الدموع بعينيها؛ فأردف:

- عديني أنكِ ستنسين هذا الهراء ولن تُخبرِي مخلوقًا بهذا الأمر.

- حسنًا أعدُك.

تنفس الصعداء، ثم ابتسم لها وقال:

- مطيعة صغيرتي.. مطيعة.

انطلق بسيارته وأعادها إلى المنزل، عاد إلى منزله، نظر إلى مرآته بغضب وقال:

- أفكارُكَ قذرة مثلك، حسبي الله عليك.

جلس على أريكته وإلى جانبه جلست "سحر"، الْتفَتَ لها ثم قال:

- لماذا صنعتِني هكذا يا "سحر"؟

- "رامس"، أريد العودة.

- أجيبي.. لماذا صنعتِني هكذا؟ شخصًا ضعيفًا جبانَ قذرًا؟ لماذا عليّ أن أحيا كل يوم في هذا العناء؟ كنتِ تستطيعين إنهاء الأمر بسطر واحد على الورق.

- هل كان سيحب القارئ هذا؟

- هذا ما يهمك؟

- "رامس"، إن نهايتك سعيدة بالنسبة للجميع.

- ليست كذلك بالنسبة لي! أي سعادة فيما فعلتِه بي في النهاية؟ لقد سرقتِ مني أعظم أحلامي.

- رامس.. أعِدْنِي الآن، أنت لا تعلم ما مررتُ به.

- ما مررتِ به! مشهد واحد في دوّامة المشاهد التي كتبتِها، ذعر شخصية واحدة منا، ذُعر وصفتِه بلا شعور.

- هل توافق على ما فعله "نورس" بي؟

- أنتِ تعلمين شخصياتك.

- شخصياتي التي صنعتُها تأبَى ذلك.

- شخصياتك التي صَنعتِها تتألم وأنتِ لا تكترثين.

همَّت أن تتحدث، ولكنه وضع أصبعه على شفتيها.

- شششش.. انتهى وقت الحوار.

"رامس"! هذا ما أرادت قوله لو خرج صوتها، نهض "رامس" إلى غرفته، ارتمى على سريره وتناول صورة والدته من فوق الكومود المجاور، تحسّس خده الأيمن يتذكر صفعتها القوية، "عُد لي عندما تعود لرُشدِك"، تذكر صورته خارجًا من باب منزله في هوان، سنوات مرت وهو لم يعد إلى رشده بعد، رفع هاتفه وضغط الأرقام وهو يحدث نفسه "على رقم المنزل ستجيب إحدى أخواتي"، صوت الرنين الرتيب يُوحِي بأنه لا رد، "نائمون، غرفة "أثير" أقرب غرفة إلى.."

- مرحبًا.

صوت صغير يجيب، تردّدَ لحظات، ثم نطق:

- رقية" أَمْ "رحمة"!، أَمْ "أثـ..

صوت الفتاة المتعجب يصيح:

- "رامس"! أخي أنا "أثير..

سمع صوت الزجر، شعر بها تنتزع سماعة الهاتف من أخته، صوتها يجيب في قسوة:

- لماذا اتصلت؟

- ...

- ماذا تريد؟ ألم أقل لـ...

صوتها القاسي يجمع حنان الدنيا بين نبراته، صوتها الذي كان يدندن له لينام في طفولته، صوتُها الذي دائمًا وبّخَه على أخطائه ثم تمدّ إحدى يدَيها لتلقنه درسًا لا يُنسى، وضع يده على حلقِه يتحسس مخارج الحروف، كلمة لم ينطق بها منذ أربع سنوات:

- أ.. أمي.. أمي.

توقف صوتها القاسي، يكاد يُقسم أنه يرى قسمات وجهها الآن، يرى عينَيها التي يوشك الدمع أن ينساب منهما، دقّات قلبها المتسارعة تدوّي في أذنه كالطبول، صَمتٌ دام لحظات لم يسمع فيها سوى صوت أنفاسها المضطرب، صاحت بحدة:

- لا تقل تلك الكلمة، أنا أتحسّر على كوني والدتك، أستقذر رحِمِي الذي حملك بداخله، إما أن تعود لرشدك أو تنسانا.

أغلقت الخط، ابتسم ثم وضع هاتفه جانبًا.

- يا أمي.. يا أمي، لم تكفّي يومًا عن التظاهر بالقسوة.

أغمض عينيه ثم فتحهما من جديد ونظر لـ"سحر".

- ألا تريدين الذهاب إلى ممر المشاهد؟

- لا أريد الذهاب إلى أي مكان.

قال باستمتاع:

- أنتِ خائفة؟

شاحت بوجهها بعيدًا؛ فأردف:

- لتعودي إلى المنزل إذًا.

(الفصل التاسع)

- عندما يظهر القمر ويغمر ضوؤه حزن السماء، عندها.. وعندها فقط تبدأ متعتنا.

- الليلة يا "نورس"؟

- الليلة يا "فهاد".

******

أسندَت جسدها إلى سور الشرفة وأخذت تميل برأسها إلى الإمام، تتأمّل النبتة العملاقة التي تضعها جارتهم على سور شرفتها، نسمات الفجر تهبّ فتتحرك الأغصان في دلال، يدٌ تدفعها من الخلف.

- ألقِ بنفسك.

سرت رجفة في أطرافها، نظرت إلى القائل.

- آه "غيث".. أرعبتني.

قال بابتسامة:

- تعمّدتُ ذلك، ما الذي تنظرين إليه؟

- إلى هذه النبتة التي تضعها جارتنا، كم هي فاتنة!

تشكل "رامس" بجانب "غيث"، ثم قال:

- العطرشان.

قالت "سحر":

- آه.. نسيتُ أنكَ هاوٍ مثلي.

نظر خلفه إلى مجموعة النباتات التي رُصّت بترتيب على أرض الشرفة:

- مجموعتكِ جيدة.

- اشتريتهم عصر اليوم، كم أنا حزينة على أخواتهن المتروكات في منزلي بالسعودية.

قال "غيث":

- لماذا لم تعطِهِم لإحدى صديقاتك؟

- لا أحد منهن يحب النباتات للأسف.

وضع يده على كتفها، ثم قال:

- لا تحزني.

وكزَه "رامس" في ذراعه وغمز بعينيه، ثم نطق:

- هل مال قلبكَ؟

رد "غيث":

- ولمَ لا يميل؟

تحدثت "سحر":

- هل أذكّرك بكلماتك التي كتبتها يا "غيث"؟

أغمضَت عينيها، ثم قالت كمن يُسمّع نصًّا حفظه:

- أنا أنقم على أمي وقوعها في الحب، حبّها لأبي هو السبب فيما نعانيه، أغمضَت عينَيها عن مساوئه فقط لأنها تحبه، لا مكان للحب في قلبي ولا قلب أخوتي، لن أسمح بدخول فردٍ جديد بيننا قد يسبّب لأحدنا الألم، لن يُورّث اسم أبي لأحد الأطفال، ستحيا أسرتنا أربعة أفراد وتموت بأربعة أفراد.

نظر "رامس" إلى "غيث" بحاجبَين مرتفعين، ثم سأله:

- هل حقًا كتبتَ هذه الكلمات؟

- شكرًا يا "سحر".. حقًا شكرًا.

قالت "سحر":

- لا تغضب، أردتُ فقط تذكيرك بكلامك.

سألها "غيث":

- ماذا إن وقعَت الشخصية في غرام كاتبها؟

- على الشخصية أن تعلم أن كاتبها يراها كدُمْية.

- ماذا؟

- هذه هي الحقيقة "غيث"، أنا لا أراكم رجالًا، أنتم دُمَى من صنعي وأنا من أقوم بتحريكها، لماذا لا أرتدِي حجابي عندما تظهرون؟ لماذا أسمح لكَ بإبقاء يدك على كتفي الآن؟ لماذا لا أعترض عندما تضمني؟ أنتم أفكار.. أفكار داخل عقلي تقيّدها السطور ليس أكثر من ذلك.

قال "رامس":

- أنتِ قاسية يا "سحر".

- لماذا تسميها قسوة؟

- لو اعترف آدميّ بمشاعره اتجاهك هل سيكون ردّكِ عليه بهذه الطريقة؟

- الفكرة في.. لا لن يكون ردي هكذا.

نطق " غيث" بصوت واهن:

- ولم لا ؟

قبل أن تنطق أردف "غيث":

- ستراعين شعوره.. صحيح؟ لن تهينه هكذا أليس كذلك؟ المشكلة أنكِ لا تدركين أنكِ صنعتِ لنا مشاعر وأن الكلام يؤلم، لسنا أفكارًا حبيسة الآن يا "سحر"، الآن نحن لا نَقِلّ عنكم في شيء.

- "غيث" أنا آسفة، لم أقصد أن..

- لا عليكِ يا صغيرتي، إنه خطئي من البداية.

اختفى من أمامها فلم تجد إلا "رامس"ينظر لها لائمًا.

- "رامس"، لا تنظر لي هكذا، نظراتك تربكني.

- وضعتِ قسوتك داخل "نورس", ثم قدمتِه في الرواية على شكل شخص سايكوباثي.

- أنا أبعد ما يكون عن "نورس".

- "نورس" جزءٌ منكِ، كلنا أجزاء منك، ترفضين هذا أعلم، ولكنها الحقيقة، كل صفة وضعتِها بأحدنا اقتبَسْتِها من نفسك، طبعًا مع تضخيم الصفة أو تصغيرها حسب الشخصية، ولكن الأصل منكِ.

- حسنًا، ولكن كلامي مع "غيث" لم يكن قسوة، أنا أُرِيه الحقيقة.

- هناك أساليب أَلطَف لإظهار الحقيقة لو لاحظتِ هذا.

- حدث الأمر وانتهينا.

- لو كان شخصًا حقيقيًا لأنّبَكِ ضميرك، أليس كذلك؟

- "رامس" قلتُ انتهينا.

مر صمت ثقيل لدقائق، ثم قال "رامس":

- "سحر".

- نعم؟

- هل يمكنكِ أن تصفِي لي منظر شعر "مُناي"؟

- كنتَ على وشك التعارك معي قبل دقائق!

- صفي لي شعرها يا "سحر".

قالت بمكر:

- ترجّانِي قليلًا.

صاح في حدة:

- "سحر"!

- هل تظن أنكَ أخفَتَنِي؟

- "سحر"، لا أريد أن أفقدَ أعصابي، أنتِ تعلمين ماذا يحدث حينها.

- هل ستضربني؟

- أنا قادر على ذلك، خارج عالمي أمتلكُ القوة لأذيّتكِ جسديًا كما أريد، فقط لا أستطيع قتلك.

- لم تخبروني بهذا منذ البداية!

- هل هذا يثير رعبك؟

صمتَت؛ فأردف:

- افعلي ما نأمركِ به حتى لا نؤذيكِ.

رفعَت إليه عينين حاولت مداراة ذعرهما؛ فقهقه ثم قال:

- كنت أمزح.. لا تخافي.

- لم أخَفْ.

- كاذبة، المهم ما رأيكِ أن تأتي معي لرؤية المزيد؟

- لا، لا أريد.

- أنتِ لم ترَي "عليّ" إلى الآن.

- "علي" صحيح.. كنت نسيته.

- إذًا هيا بنا.

*****

رجلٌ في منتصف الثلاثينات يجلس على كرسي متحرك، بعض الشعيرات البيضاء في لحيته تزيده جاذبية، "رامس" يجلس أمامه يستمع إلى أحاديثه بملل، يتساءل لماذا قَبِلَ دعوة هذا الرجل؟

- انتقلتُ إلى هذا الحي منذ عدة أشهر، تعرّفتُ على جميع الجيران باستثنائك.

- يؤسفني أن أقول لك يا...

صمت قليلًا يتذكر الاسم؛ فقال الرجل:

- "عليّ".

- آه "عليّ"، المهم أنني أكره الاجتماعيات ولا أطيق سكان هذا الحي وأود تفجيرهم جميعًا.

قهقه "علي"، ثم قال:

- أعلم.. سمعتك تجوب المكان.

أكمل "عليّ" ثرثرته عن نفسه:

- وهذه ابنتي "ريماس" شيطانة كثيرة الكلام، بالصف الثاني و...

تأمل "رامس" الفتاة، نحيلة بشعر حريريّ يصل إلى آخر ظهرها بشرة قمحية، هتفَ صوت أفكاره "تشبه رقية"، نظر لها ثم قال:

- هل تسمحين لي باللعب في شعرِك؟

- بالطبع لا.. هل أنت مجنون؟

- "ريماس" عيب، اعتذري فورًا.

صاح "عليّ"؛ فقال "رامس":

- دعها دعها، إنها تشبه أختي شكلًا ولسانًا، كنت أختبرها، تعجبني حرية الأطفال، مشاعرهم صادقة لم يصلها زيف المجتمع بعد.

- لاحظتُ يا "رامس" أنك وحيد، تبدو غير متزوج.

- نعم أنا غير متزوج، وأنت دعوتني فقط لأجيبك على أسئلتك الفضولية حول حياتي.

- ليس الأمر هكذا، أردت فقط التعرف عليك.

- أنت لا..

لو أطلق "رامس" للسانِهِ العنان لتحوّل إلى رشاش يقذف الكلمات بلا توقف، تمالك نفسه وأخذ نفَسًا عميقًا، "اهدأ يا "رامس" اهدأ، لا سبب

لإهانة هذا الرجل، أنت في منزله اهدأ"، تأمّلَهُ "عليّ" بنظرات خالية من التعبير، فقال "رامس":

- هل لديكَ أبناء دون ريماس؟

- نعم, توأمان في الثالثة من عمرهما.

- بارك الله لك فيهما.

- لم أُصلّ العشاء إلى الآن، ما رأيك لنصليها سويًّا؟

- قلتَ إن سمعتي تجوب المكان، كيف تدعوني إلى الصلاة؟

- وما المشكلة؟! هل أنت مخمور؟

- لا ول...

- أتركتَ الدين؟

- لا الأمر ا...

- إذًا هيا لنصلي.

غالبه الخجل لأول مرة منذ سنوات، قال "علي":

- جميعنا نخطئ، ولكن الخطأ الأكبر أن نسمح الشيطان بأن يُوهِمنا أن الباب مغلق وهو مفتوح على مصراعيه!

(الفصل العاشر)

"إنها تحتضر.. إنها تحتضر"، كلمات همس بها أحدهما بعينين دامعتين في أذن الآخر، "ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به"، والده يهمس بهذه الآية ويمسح دمعة كادَت تنساب على خدّه، تلاشى المكان وظهرَ وجهه في التاسعة من عمره "إن أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد اسجد يا "رامس"، اسجد"، "لا يردُّ القضاء إلا الدعاء"، مشهد آخر؛ "نورس" يمسك السوط ويتقدم بهدوء، صوته البارد يصدح في السكون: ("رامس"، أخبرني ما عقاب الزاني وشارب الخمر في الإسلام؟), "رامس" يتساءل في قلق: (وهل تنوي تنفيذه؟)، "نورس" يبتسم وهو يقول: "ربما!"، السوط يسقط على جلده، لسعة تسري في جسدها.

- أعوذ بالله.

هكذا نطقت وهي تجلس على سريرها، نظرت إلى وجهها في المرآة تتأمل عينيها المنتفختين من أثر النوم، تتأكد أنها هنا في الحقيقة وليست بين أحد السطور، أمسكَت رأسها ثم قالت:

- لقد أصبحوا يلاحقونني في أحلامي.

*****

في الطابق الخامس الذي تمتلئ أرضيته بفضلات الطيور، هنا كانت معظم مواقفهما سويا، هنا لعبا المسّاكة مرارًا مع أطفال الحي، وتسابقا في جمع بيض الدجاجات، وهنا أغلب جلوسهما حتى بعدما كبرا..

قال "مازن" وهو يحك رأسه وينظر إلى الدفتر المفتوح أمامه:

- "نورس" شديد اللطف، هذه الشخصيات تريبُني.

ردت "سحر " وهي تتناول منه الدفتر:

- سأحرق لكَ شيئًا والأمر لله، لو ركّزتَ لوجدتَ أنّ "نورس" يفعل ذلك لمصلحته، انظر إلى هذا المشهد

قالت جملتها الأخيرة ومدت الدفتر باتجاهه فتناوله منها ثم أردفت:

- تسبّب في طرد "عفراء" عندما خالفته الرأي، ارتكب خطأً ثم قلب الطاولة عليها، استغل قربه من "رامس" والصداقة التي تربطهما، وفي النهاية تم له ما يريد، "نورس" هو رأس الأفعى في الحبكة.

- حقًا؟ ماذا سيفعل؟

- اقرأ يا "مازن"، اقرأ وستعرف.

- افففف، سأكمل.. قالت "رُبا"...

صاحت سحر وهي تلكزه:

- قلت مرارًا بدون صوت، بدون صووووت.

*****

قالت "رُبا":

- وعمّتي هذه يا الله، حرباء تتلوّن على كل الألوان، تدّعِي محبتي وتأتي لزيارتي، وهي فقط لا تريد إلا المال الذي تركه أبي لي.

قال "فهاد":

- وكذلك أنا لا أحب خالتي، شمطاء تتطفّل على حياتنا بدافع الحب.

قالت "نوف" موجهة كلامها إلى "نورس":

- "نورس"، لديّ سؤال فضولي.

- تفضلي.

- ما هي ديانتك؟

قال "فهاد":

- صحيح "نورس"، أنتَ لستَ مسيحيًا؟

- حسنًا.. أنا لا ديني، وإذا أردنا التحديد لا اكتراثي، لا أعتقد بصحة أي من الأديان الموجودة، ولا أهتم بالموضوع من الأساس.

رفعت "مُناي" حاجبها باستنكار وقالت:

- لا تهتم؟!

- نعم، ولماذا أهتم؟ على مستوى حياتي لم أجد الدين يقدم لي فائدة ملموسة؛ لذلك صرفت وقتي وتفكيري لما يعود بالنفع عليّ.

قال "سمير":

- ولكن...

قاطعه "نورس" في حدة:

- "سمير"، أنا لا أريد نقاشًا ومحاولة إقناع، هذه حياتي وأنا حر.

ثم غيّر ملامح وجهه وابتسم، وقال في مرح:

- اجتمعنا لنتم مسألة السفر، لقد أعددتُ لكم برنامجًا سياحيًا رائعًا.

قالت "نوف":

- أخبرتُكَ أن أختي ستأتي معنا.. صحيح؟

- آه أخبرتني.. لا مانع، ستزيد المتعة.

قالت "مُناي":

- أنا متحمسة كثيرًا! صحيح أنني محرجة من كذبتي ولكن ما من سبيل آخر لموافقة أمي.

قال "نورس":

- كذبة بيضاء يا "مُناي"، نقية كثوب أبيض أنتِ.

- لم أعتَد الكذب عليها يا "نورس"، فهي كل ما تبقّى لي.. تعلمون بعد وفاة أبي وأختي أمام عيني لم يبقى لي سواها.. هل تعلمون دائما أدعو الله أن

يجعل وفاتي أولًا، فبعد ما حدث وأزمتي النفسية الشديدة بعد فقد أبي وأختي لا اعتقد أنني سأتحمل المزيد من الصدمات..

نطق "سمير":

- أبعد الله الشر عن كليكما

تداخلت الأصوات تواسي "مُناي" التي بدأ الدمع ينساب من عينيها.. تداخلت الكلمات في قلب "رامس"، أفكاره تصرخ بالمواساة ولسانه يأبى النطق، أغمض عينيه يبتعد عن مظهرها الباكي الذي يؤلمه..

*****

طرقات خفيفة على بابه، نهض متثاقلا يفتح الباب، وجد "ريماس" بعينيها الواسعتين.

- عم "رامس"، أبي يدعوك للعشاء.

- حسنًا يا صغيرتي، أخبريه أنني قادم.

منذ فترة أصبح هذا الرجل على مسافة قريبة منه، يجذبه إليه بهدوء وبروية، يذكّره بأبيه، وربما هذا هو سبب حب "رامس" له، غادر منزله ثم دلف من الباب الخلفي، وقف يتأمل النباتات المُعتنى بها جيدًا، وجّه كلامه إلى "عليّ" قائلًا:

- "عليّ"، لماذا لا تزرع الصباريات؟

- لا أحبها، يقولون إنها تولّد الطاقة السلبية في المكان الذي توجد به.

ترك "رامس" تأمُّلَ النبتة التي كان يراقبها، واستدار له قائلًا:

- هل أنت جاد؟ تصدق هذه التخاريف! إن الصباريات أكثر النباتات جمالًا على وجه البسيطة.

- لا أظن ذلك.

ثم أردف مغيّرًا مجرى الحديث قبل أن ينطق "رامس" بالرد:

- قلّما يدخل شخص إلى حديقتي ولا يلتقط لها صورة!

- أمقُتُ الصور.. تُظهرُني بشعًا.

- إنها تُظهِر الحقيقة.

- لا ليست الحقيقة، ربما ميزتي الوحيدة هو وجهي، ليس بالجمال الفاتن ولكنه على الأقل ليس بشعًا.

- هل لي بسؤال فضولي يا "رامس" ؟

- لك إن سمحت لي بالمثل.

- حسنًا.. ابدأ أنت.

- هل وُلدت هكذا؟ أم حادث؟ أقصد أن...

- أفهمك، لا.. كان حادثًا منذ أربع سنوات مضت.

- وهل من السهل متابعة الحياة بعدما حدث؟

- تذكر أنه لا خيار أمامك، إما أن تحيا حزينًا على ما حدث، أو تتفنّن في صنع السعادة لنفسك، حسنًا إنه دوري.

- اسأل.

- هل حياتك هكذا منذ البداية؟ لا أعلم.. لا تبدو من ذلك النوع.. أنت تفهمني؟

- أفهم، بعد وفاة والدي جرّني أصدقائي، كان لوالدي دور في هذا؛ فقد علّمني أنه دائمًا موجود، وأن اختفاءَه شيء مستحيل؛ لذلك بعد موته وجدتُ نفسي عاريًا في مهب الريح.

- لا أظن أن الخطأ خطأ والدك بالكامل، متى توفي والدك؟

- كنت في الثانية والعشرين.

- لم تكن طفلًا، بل رجلًا يمكنه تقبل الواقع.. الخطأ خطؤك أنت، هل كان من المفترض أن يتنبأ والدك بخبر وفاته ويخبرك قبلها حتى تستعد؟ ثم صحيح شركتك تسير كأحسن ما يكون، لماذا لم تفعل بحياتك هكذا؟

- لأن هذا المال مال أخواتي وأمي، بالطبع لن أسمح لمكروه بأن يصيبهم، أبي لم يعلمني كيف أكون سندًا لنفسي، لم يخبرني أن الحياة تقسو وأن أقدارها لا ترحم.

- كان سنك وقتها يجب أن يخبرك بذلك، ادعُ لأبيك بالرحمة يا "رامس"، وتعالَ لتناول العشاء.

قرأ "مازن" تلك الكلمات، ثم أغلق الدفتر وصاح في "سحر"؛ فسقط منها الكوب التي كانت تحمله وتهشم.

- يا حمقاء، متى ستنتهي هذه الرواية؟

- ما هذا الذي فعلته؟ الله يخرب بيتك يا أخي، هل تعلم من أين هذا الكوب؟ لقد أخذته من "النيش"، هل تعلم معنى هذا؟ أقسمْتُ لأمي أغلظ الأيمان أنه لن يُمس بسوء حتى تسمح لي بالشرب فيه.

صمتت لحظات، ثم صاحت:

- ماذا سنفعل الآن؟

- سنفعل! وما دخلي؟ أنتِ كسرته.

- لأنكَ أفزعتني.

- لا شأن لي، تصرفي مع والداتك.

تركها وحمل الدفتر، فركضت خلفه ثم ركلته في قدمه.

- أعطني دفتري.

- "سحر"، لا أريد أن أوسعكِ ضربًا.

- لا تستطيع.. أعطني الدفتر.

- سأحترم كونكِ أختي من الرضاعة وجارتي وكونك فتاة ولن أقتلكِ هنا، ولكن دفتركِ لن تأخذيه حتى أُتمّ القراءة.

قال تلك الكلمات ثم ركض نازلًا الدرج، جلست القرفصاء على الأرضية التي امتلأت بفضلات الحمام اليابس.

- حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا "مازن".. حسبي الله.

متأملًا تلك الأشجار التي تتسارع على جنبات الطريق يراهم الآن، يتسارعون للّحاق بهم كما تفعل الأشجار، انعكاس أفكاره المشوّشة المضطربة، نظر إليها فوجدها تراقب الطريق في صمت مطبق، شعرُها المتبقّي يتناثر على وجهها الفاتن الذي زاده الإجهاد جمالًا خاصًا، وذلك الوسيم خلف عجلة القيادة لا يختلف عنهما، عاد يتأمل تلك الأشجار، ثم أسند رأسه للوراء وبدأ يقول:

- حلمي تحطّمَ واختفى، والعزم في قلبي غفا، والدمع من عيني يسقط مرهفًا، أملي تحطّم في الصخور، والحزن أضحى بي يدور، واليأس يكتب نفسه بين السطور.

صوتها الباهت يكمل:

- الخوف قيّد أضلعي، لم يبقَ لي شخص معي.

أكمل الثالث:

- وشعرتُ همسًا خافتًا في مسمعي، همسٌ يقول إلى متى ستظل تغرق في البكا؟

*****

قم نحو شمس الصبح لا غيم الشتا، يأسُ القلوب نعم يزال، لا لا يدوم فذا محال، انظر إلى الدنيا معي هيا تعال، وانظر إلى تلك النجوم مهما تغطيها الغيوم ستظل تلمع حرة حبًا تحوم.

صوت من الخلف يصيح:

- دفترِكِ يا "سحر".

- "مازن" أفزَعْتَني.

قالت وهي تلتقط الدفتر الطائر في الهواء.

- آسف لديّ موعد هام جدًا تأخرتُ عليه.

قال تلك الكلمات وهو يقفز درجات السلم، فصاحت:

- ستخبرني كل شيء عنه عندما تعود.

وضعَت الدفتر على المقعد الخشبي، ثم أكملت كنس الأرضية التي تملؤها الفضلات والغبار، توقفَت عندما رأت الحروف الزرقاء تأتي من اللامكان، "غيث" يقف أمامها يقول:

- مرحبًا.

- مرحبًا، كيف حالك؟

- بخير.

- "غيث" أنا آسفة، عندما سألتني عن ردي إذا كان القائل بشريًا، لم أكن أقصد أن الرد سيكون أنعم أو ألطف، سيختلف الرد لأن البشري يمتلك فرصة يا "غيث"، هل تفهم كيف؟

- "سحر"، كان من الممكن أن يقال الكلام بصيغة ألطف.

- الحقيقة لا تُجمّل، الحقيقة يجب أن تؤلِم حتى تُصدّق، الحقيقة اللطيفة لا يصدقها أحد، يظنونها كذبة.

- انسِ الأمر.

- أنت من يجب أن تنساه.

- لماذا قتلتِني في النهاية يا "سحر"؟ لماذا لم يحدث أمر ما يجعلني أنجو؟

- ماذا كان سيحدث؟ أنت مقيّد إلى جانب "نورة" و"نورس" مسيطر؟

- أنتِ الكاتبة، أنتِ من يجب أن يفكر.

- هل تريد تغيير نهايتك؟

- لا مجال.. النهاية كُتبت وانتهى الأمر، النهاية هي القدر لا مجال للهروب من القدر.

- أتساءل كيف ستكون نهايتي؟

- منتحرة.

- ماذا؟

- هذا ما سيحدث.

- مستحيل، ما الذي يُجبِر فتاة مثلي على الانتحار؟

اقترب منها، ثم طوق خصرها بذراعه وقال:

- نحن!

تلاشى عالمها، هي الآن نائمة على سرير ممسكة بزجاجة مياه كسلاح وبيدها الأخرى تسحب الغطاء على جسدها، أفكارها تضطرب، (أنا في جسد "رُبا")، تزايدَت ضربات قلبها وهي ترى من يتحرك خلال الغرفة.

- من؟!

- لا تقلقي، أنا "فهاد".

تراخت قبضتها عن زجاجة المياه، صاح صوت أفكار "سحر" (اكسري زجاجة المياه على رأسه)، حاولَت تحريك يدها لتفعل ففشلت، "تبًا.. هذه المرة ليسَ لي سيطرة على هذا الجسد"، نطقت "رُبا":

- من سمحَ لك بدخول غرفتي؟ هل جننت؟

- شششش اخْفِضِي صوتك.

- ماذا هناك؟

ثم قالت وقد عاد صوتها يرتفع:

- ثم لا...

وضع يده على فمها، ثم قال:

- قلتُ اخفضي صوتك، الأصوات تزعجهم.

ظلت تنظر إليه لثوان متسائلة، أفكار "رُبا" تقول أن هناك أمرًا ما ثم تعود لتنفي الأمر "إن هذا "فهاد"، صديقك ذو العقل الطفولي لن يحدث شيء، وإن حدث سيكون هو مصدر حمايتك"، أزال "فهاد" يده من على فمها، ثم جلس بجانبها ومد قدميه.

- تتساءَلين من؟ أليس كذلك؟

بحركة سريعة وضع يده على فمها واعتصر كلتا يدَيها بين أصابع يده الأخرى الغليظة، ثم همس بأذنها:

- الموتى.

لحظات ووجدت نفسها مقيدة إلى سريرها وعلى فمها شريط لاصق، سريع وقوي كأنه يخطف عشرات الفتيات يوميًا، أشعل لفافة تبغ، ثم وقف إلى جانبها..

- لقد لوثتُ يديّ بالدماء من أجلكِ أنتِ فقط، أنتِ هدفي الأكبر، حياة الكثير كانت ثمنًا لساعة معك يا "رُبا"، فكرتُ أن أقتلَكِ أولًا ثم أفعل ما أريد، ولكنني وجدتُ أن جسدًا بلا روح هو جثة لا تقدّم المتعة.

اتجه إلى الشرفة، ثم فتحها واستدار لربا قائلًا:

- نسمح لبعض الهواء أن يدخل ثم نغلقها.

"رُبا" تتأمله بعينين اغرورَقَتَا بالدموع، اضطربَت أنفاسها وقلبها يتواثب داخل صدرها، انكسر كبرياؤها في لحظات وأصبحت مستعدة لفعل أي شيء حتى يتركها، جسدٌ وثب على "فهاد" من الشرفة ثم طعنه، طعنة وراء طعنة حتى تهاوَى تمامًا وانتهت مقاومته وسقط أرضًا، وقفت "إيلاف" تنظر إليه بعينين متسعتين وجبين اكتسَى بالعرق ألقت المِدْيَة أرضًا، وهرولت إلى "رُبا"، أزالَت الشريط اللاصق، قالت "رُبا" بصوت باهت يقاوم الخروج:

- أنا مدينةٌ لك بحياتي.

- وهذا ما أريده.. حياتك!

أردفَت "إيلاف" وقد تغيرت ملامحها:

- سخِرْتِ مني مرة وراء مرة أمام الجميع، تتباهين بجمال وجهكِ ورشاقتك، ما فائدة الجمال إذا كان القلب متعفّنًا؟ كنتُ أخطط للانتقام منذ أن أتينا إلى هنا، وكل الشكر لهذا الأحمق لأنه جعل الأمر أسهل.

نهضَت ثم تناولت المِدْيَة من على الأرض، وأخرجت مقصًا من جيبها ولوّحَت به.

- نقص هذا الشعر الجميل، ثم ننتقل إلى الوجه، سأتركك مشوهة يخاف الجميع من النظر إلى وجهك، سأتركك بلا حياة.

وضعت "إيلاف" الشريط اللاصق من جديد على فم "رُبا"، وبقسوة بدأت تقص شعرها الذي يصل لأسفل خصرها، شخص يدق الباب ثم يدخل.

- "رُبا"، آسف ولـ...

توقفت كلماته وقضى ثوان يستوعب ما هناك، صاح:

- "إيلاف"، ماذا تفعلين؟

- أقتصّ لنفسي يا "سمير".

- هل جننتِ؟

قالت وهي تنهض وتتجه إليه:

- نعم، وإذا لم تبتعد عن طريقي فسأؤذيك، أقسم أنني سأفعل.

اقتربَت منه وهي توجّه المِدْية إلى قلبه، أسقطها أرضًا ثم وثب فوق جسدها المكتنز وتناول المدية وغرسها بقلبها، سيطر عليه الذهول وهو يراها أسفل منه تُودّع الحياة، حدّق بها لفترة، ثم قال:

- ماذا سنفعل الآن؟

نظرت "رُبا" إليه بعينين اتسعتا، ثم عاودت النظر إلى الجثتين ولم تُجِب، اتجه إليها "سمير" وحل وثاقها؛ فركضت مبتعدة عنه تجاه الباب.

- ابتعد عني، ما أدراني أنكَ لستَ مثلها.

- "رُبا"، أنا أنقذتكِ منها.

- كذلك هي أنقذتني من "فهاد".

ركض خلفها ثم كمّم فمها وأمسكها بقوة وجرها إلى الغرفة، أغلق الباب ثم صاح:

- اسمعي.. لا وقت لدينا لهستيريا النساء هذه، علينا مغادرة المكان بسرعة إلى بلادنا، هناك جثتان هنا.

ثم قال كمن يستذكر شيئًا:

- لحظة لحظة.. أشم رائحة الدماء في كل مكان، هناك خائنان الدال تتربع بآخر اسم أحدهما كالملكة على العرش، " فهاد "!والآخر عيناه تشرقان كأنهما شمس الظهيرة"نورس"! "ثم لا ندري ربما يداهمنا الموت فجأة"، "نورس" منذ أن أتينا هنا يذكر الموت، هو من أتى بنا هنا! منزل معزول على أطراف البلدة، فكرة السفر كانت فكرته وهذه بلاده!

انتزع "سمير" المِدْيَة من صدر "إيلاف"، ثم ناول "رُبا" المقص من على السرير وقال:

- اتبعيني.

بحرص ترجّلا الدرج، سمعا صوت "رامس" بالشرفة، أشار سمير إلى "رُبا" ثم اتجها بخطوات حذرة نحو الشرفة.

"رامس" يُخاطب "نورس" بلهجة تتخللها الريبة:

- وهل تنوي تنفيذه؟

ابتسم "نورس" وهو يُظهِر السوط من خلف ظهره.

- ربما!

- أنت مريض!

- كلنا مرضى، أخبرني يا "رامس" من منا ليس مريض؟ هاه! "سمير" أنانيّ ويضع نفسه فوق الجميع، "رُبا" مغرورة تكاد تصل إلى درجة عبادة نفسها، "إيلاف" تحقد على كل جميلة تقابلها، "غيث" ذلك القبيح المعدوم الذي لم يصداقنا إلا لنرفع من شأنه ونقضي له مصالحه، "آدم" المجنون الذي يحيا بعالم زوجته الميتة، "نوف" حمقاء عطلت عقلها وتتبع حدسها في كل شيء، "فهاد" الطفل الذي يجب أن يحصل على كل ما يريد، لا تريدني بالطبع أن أتحدث عنك، ربما النقي الوحيد بيننا هو "مُناي".. ووجودها بيننا يجعلها تستحق الموت، وأبشرّك لقد ماتت، ولم يتبقى منهم سواك والآن حان دورك.

وثب "سمير" من الخلف على "نورس" ثم طعنه في كتفه، ظهر المسدس الذي كان يخفيه "نورس" في ملابسه، تناولته "رُبا" وسلطته على جسده، يدها ترتجف وينتابها التردد، صاح بها "سمير":

- هيا!

ضغطت الزناد؛ فتهاوى "نورس" أرضا ، وقف ثلاثتهم يتأملونه، قال "سمير":

- يجب أن نخرج من هنا، لنجلب أوراقنا ونعد إلى بلادنا.

ثم نظر إلى ملابسه التي اختلطَت بدماء "نورس".

- ولنغير ملابسنا .

نطقت "ربا":

- هل ..هل انتهى الجميع؟

رد "رامس" بوهن:

-نعم، يجب أن أرى "مُناي".

أمسكه "سمير" من ملابسه، ثم قال:

- ليس الوقت وقت عواطف الآن.

- سأراها حتى وإن كنتُ سأُقتَل إلى جانبها.

نظر إليه "سمير" بمزيج من الشفقة والغيظ، ثم صاح:

- لنصعد.

فتح "رامس" باب الغرفة؛ فوجدها ممدّدة أمام سريرها، طعنة بالقلب أغرقَت ملابسها بالدماء، ظل ينظر إليها ثم توجه إليها وجثا على ركبتيه إلى جانبها، وضع ذراعه أسفل ظهرها، ثم رفعها وقال:

- لم تستحقّي يومًا هذا المصير، أعلم كل ذلك الكلام، أعلم ان لله حكَمَة بذلك، وأنه ليس دائمًا يحصل المرؤ على ما يستحقه، ولكنني متألم، كالذي يسعى طوال عمره باتجاه الماء ثم يصل إليه ويجده سرابًا، أنتِ الآن سراب "مُناي".. سراب!

توقف عن الكلام ثم انهمرت دموعه، مسحها ثم أكمل:

- سأفعل الآن الشيء الذي دائمًا كنت أتمناه، اعذريني حبيبتي سيكون الأول والأخير.

رفعها أكثر ثم لف ذراعه الآخر حول جسدها النحيف، ظل هكذا لدقائق ثم أنزلها على الأرض بروية وقبّل رأسها، خرجوا من الغرفة، فقال "سمير":

- الآن هيا.. كل منا إلى غرفته، أوراقكما وأموالكما وما هو مهم فقط.

بعدما انتهوا دلفوا إلى إحدى السيارات التي قدموا بها، تحدثت "رُبا" مخاطبة "سمير":

- أنتَ تتذكر طريق العودة، أليس كذلك؟

- أنا لا أنسى التفاصيل.

نظر "رامس" إلى المنزل، ثم همس وهو يراه يبتعد:

- الوداع.

متأملًا تلك الأشجار التي تتسارع على جنبات الطريق يراهم الآن، يتسارعون للحاق بهم كما تفعل الأشجار، انعكاس أفكاره المشوشة المضطربة، نظر إلى "رُبا" فوجدها تراقب الطريق في صمت مطبق، شعرُها المتبقي يتناثر على وجهها الفاتن الذي زاده الإجهاد جمالًا خاصًا، و"سمير" خلف عجلة القيادة لا يختلف عنهما، عاد يتأمل تلك الأشجار، ثم أسند رأسه للوراء وبدأ يقول:

- حلمي تحطم واختفى، والعزم في قلبي غفا، والدمع من عيني يسقط مرهفًا، أملي تحطم في الصخور، والحزن أضحى بي يدور، واليأس يكتب نفسه بين السطور.

صوتها الباهت يكمل:

- الخوف قيّد أضلعي، لم يبقَ لي شخص معي.

أكمل "سمير":

- وشعرتُ همسًا خافتًا في مسمعي، همسٌ يقول لي متى ستظل تغرق في البكا؟

(الفصل الحادي عشر)

خارجًا من المطار يجر حقيبته وراءَه، أوقفه "سمير":

- "رامس".

- ماذا تريد؟

- اسمع.. كان من الممكن أن نصبح في عداد الموتى الآن، لقد أُعطينا فرصة لنبدأ من جديد، إن ما حدث له تأثير علينا، أنصحك بأن تستغله للأفضل.

قال "سمير" تلك الكلمات ثم جر حقيبته واختفى من أمامه.

*****

وصل إلى المنزل، صعد الدرج سريعًا ثم دق الباب، دقات سريعة متتالية كأنه عازف طبول هاوٍ، فُتح الباب ليظهر وجه زوج أخته مذعورًا بالمنامة، تقف وراءَه "ولاء" تغلقُ الروب على جسدها السمين.

- أين ابنتي؟

قال الرجل:

- "سمير"، ماذا هناك؟ لقد أخفتَنا، هل حدث أمر؟

- لا لم يحدث شيء، فقط أريد أن أراها.

- ادخل أولًا وأخبِرْنا ماذا حدث، هل عُدتَ لتوك من الخارج؟

- نعم، واشتقت إليها.. أريد رؤيتها.

- إنها نائمة الآن.

كرر بإصرار:

- أريد رؤيتها.

نظرت "ولاء" إلى زوجها ورفعت حاجبيها، ثم قالت:

- حسنًا.. هي بغرفة الأولاد، ادخل.

هرع إلى الغرفة؛ فقالت "ولاء" منبّهة:

- بهدوء لا توقظهم.

دلف إلى الغرفة واقترب من سرير ابنته، جثا على ركبتيه وتأملها وهي نائمة، "يالأنانيتي! فضّلتُ راحتي على حياتك حتى عُطلتُكِ أسافر فيها، سامحيني كنت قاسيًا، لن يتكرر هذا.. سأحيا لكِ ومن أجلك.. أعدُكِ"، أزال خصلات شعرها من على جبينها ثم قبّلها وغادر الغرفة، خرج ليجد أخته وزوجها جالسَين على الأريكة، ما أن رأته "ولاء" حتى قالت:

- أخبرني ماذا هناك؟ ولماذا عُدتَ الآن؟ موعد عودتك بعد يومين!

- هل تسمحان لي بأن أبيت ليلتي جانب "سالي"؟

تبادلَت "ولاء" النظرات مع زوجها، فقال الأخير:

- سمير، هل أنت بخير؟ هل حدث أمر ما؟

- لا، لم يحدث شيء.. لقد.. الأمر فقط أنني شعرتُ بتقصيري.

صاحت "ولاء":

- وما الذي جعلكَ تشعر به في الخامسة والنصف صباحًا؟

- استيقظَ ضميري يا "ولاء".

- من الجيد أنكَ ما زلتَ تمتلك واحدًا مممم

وضع زوجها يده على فمها، ثم ابتسم لـ"سمير" وقال:

- تعرف أختك.. عقلها لا يعمل في أول خمس ساعات بعد استيقاظها من النوم، تفضّل أخي الدار دارك.

*****

وقف"رامس" أمام الباب الداخلي للمنزل، قلبه يرتجف، لم يدلف إلى هذا المنزل منذ أربع سنوات مضَت، يشم رائحة البخور، أمه تشعله الآن

كعادتها بعد صلاة الفجر، أغمض عينيه وهو يتخيلها تتحرك داخل المنزل برداء الصلاة تحمل في يدها المبخرة، يعلم أنها الآن ستفتح الباب حتى تعطر مدخل المنزل، فُتح الباب فوجدته أمامها، اتّسعَت عيناها وهمسَت بالتسمية والاستعاذة.. نطق "رامس":

- لقد عدتُ إلى رشدي يا أمي وعدتُ إليك، هل سأجد حضنكِ ينتظرني أم ستتمسّكين بشدتكِ المعتادة؟

ظلت تحدق به ولم تنطق.

- تخلّي عنها هذه المرة من أجلي؛ فأنا أحتاجك وأخبرُكِ أنني عدتُ إلى رشدي، أرجوكِ يا أمي أستحلفكِ بالله.

فتحت ذراعيها لها فارتمى بينهما، أجهش بالبكاء وهو يقول:

- لم أعد أقوى على الاحتمال وحدي، لقد تعذبتُ كثيرًا.

*****

ضوء الشمس يتسلل إلى عينيه، تبعه ذلك الصوت الأنثوي الناعم الذي يحثه على الاستيقاظ:

- هيا استيقظ.. ستتأخر.

فتح عينيه فكان أول ما رآه تلك اللوحة المعلقة مكانها منذ سنوات، "زحل يأكل أبناءه"، تذكر كلمات "غيث" "ما الذي يُجبر إنسانًا عاقلًا أن يضع لوحة كهذه في الجدار المقابل لسريره؟ لتكون أخر شيء يراه قبل أن ينام وأول شيء يراه عندما يستيقظ؟ ناهيكَ عن أن الملائكة لا تدخل بيتًا عُلّق فيه صورة، آه صحيح لماذا تحتاج الملائكة أن تدخل إلى بيتك من الأساس؟ إنه بيت يسكن فيه الشيطان بذاته"، ارتسمَت على شفتيه ابتسامة جانبية.

- صباح الخير يا أستاذ.. ليس من عاداتك كل هذا النوم.

- كفِّي عن الثرثرة قليلًا وأعدّي لي إفطاري وقهوتي.

- كل شيء جاهز.

- جيد يا صغيرتي.

- قلتُ لكَ مرارًا أنني لست صغيرة، آه بالمناسبة.. سأذهب أنا وأمي اليوم إلى لطبيب.

ثم قالت وهي ترفع كلتا يديها إلى أقصى ارتفاع لهما كطريقتها المعتادة عندما تقول شيئًا يسعدها:

- اليوم سنعرف جنس المولود.

- جيد.

- لا يبدو عليك الحماس.

- صراحة لم أكن أريد أن أعرف جنس المولود، حلو الغموض!

- لا ليس حلوًا، والآن هيا للإفطار.

*****

دلف إلى ذلك المقهى، يرتدي بذلته التي لم تكفّ يومًا عن إعطائه مظهر المدير، بحثَ عنها بعينيه حتى وجدها، توجّه إليها ثم اتخذ المقعد الذي أمامها وقال:

- تعلمين طبعًا معنى أن أترك العمل وآتي لمقابلتك.

- قل كيف حالكِ أولًا.

- كيف حالكِ أولًا؟ هل انتهيتِ من القراءة؟

أخرجَت دفترًا من حقيبتها، ثم ناولته إياه وقالت:

- عانيتُ كثيرًا في فهم خطك، إذا كنت لا تعلم فهناك برامج للكتابة على الحاسب الآلي.

- المهم ما رأيك؟

- كم مرّ من الزمن ؟

- خمس سنوات.

- هل كانوا يستحقون ما حدث هناك يا "رامس"؟ هل استحقوا الموت كعقاب؟

- لماذا حكمتِ أنه عقاب؟ لم يكن عقابًا، لماذا نعتبره دائمًا كذلك؟ هل تعلمين؟ نحن كمن يرى الأحداث من جانب واحد، الأحداث لا تُرى كذلك، يجب أن تُرى من جميع الجوانب، وقتها نستطيع الحكم بما هو صحيح، هم لم يكونوا بحاجة إلى مزيد من الحياة، أما نحن فكنا نحتاج فرصة نصلح بها ما أفسدناه.

- و"نورس" و"إيلاف" و"فهاد"؟ ماذا عنهم؟

- هؤلاء يمكن اعتبار الموت لهم عقابًا، وما وراءَه من عذاب.

حركت رأسها موافقة، ثم قالت بعدما تذكّرَت شيئًا:

- وتلك الطفلة زوجتك، هل تعلم ما حدث لأخيها؟

- لا بالطبع، هل جننتِ؟

- لا أعلم بماذا كنت تفكر وأنت تتزوج طفلة تصغرك بثلاثة عشر سنة!

- هي أمانتِي يا "رُبا"، بعد وفاة "غيث" أصبحَت هي وعائلتها في رقبتي.

- ومتى ستخبرها بحقيقة وفاة أخيها؟

- لن اخبرها، كل ما تعرفه أن أخاها توفي في حادث عندما كنا خارج البلاد.

- هل ما زلتَ ترى سمير؟

- لا، منذ استقالته لم أعد أراه، وأنتِ ألن تعودي للعمل؟

- لن أعود، الحياة في القرية مع عمتي جيدة، لم تكن تلك المرأة سيئة جدًا كما أظن .

- تغيّرتِ يا "رُبا".

- من منّا لم يتغير؟ تلك التجربة آلمتنا، من كان يصدق أنكَ اعتدلتَ وتزوجتَ واكتسبَتْ حياتُك ملامح الاستقرار؟ عندما تقف على حافة الموت وتعود لا تصبح الحياة بعينِك كما كانت.

لم يتكلم، نظر إليها وهي تنهض وتعلّق حقيبتها على كتفها وتسأله.

- هل تنوي نشرها؟

- لا.. ستفتح ستائر كانت مغلقة.

- أعجبني خيالك في إضافتك مشاهد لم تحدث.

- صحيح، أودّ أن أشكركِ على مساعدتي بالأحداث، ومكانك بالعمل ينتظر.

- لن أعود، شركتَكَ تذكرني بما حدث، بالأصدقاء والضحايا، بـ"نورس" وما كان يريد فعله بنا جميعًا، وتابعه الحقير "فهاد" الذي لوث يديه بالدماء فقط من أجل شهوته، أتعجّب من قدرتك على الاستمرار بها.

- لقد تعلمتُ أن أواجه، أواجه لأتجاوز، لا أن أهرب.

قالت وهي تخطو أولى خطواتها تجاه المخرج:

- وداعًا "رامس".

- وداعًا آنسة "رُبا".

وصل إلى منزله ثم ارتمى على سريره، لم تعد هناك أكوامُ ملابس ملقاة هنا وهناك، جاءَت "غدي" ونامت إلى جواره، ثم قالت:

- صحيح.. لم تخبرني ماذا ستسمي الطفلة؟

وضع يده على بطنها، ثم قال وهو يستحضر طيف محبوبته:

- مُناي".

قطبت جبينها وردّدَت الاسم مرتين كأنما تتذوقه، ثم قالت:

- ليس سيئًا، ليكن "مُناي".

تمت بفضل الله

****

أغلقت "سحر" الدفتر ووضعت إلى جانبه القلم، أنهَت كل ما تريد تعديله، أضافت التفاصيل وأسهبَت في وصف المشاعر التي عاشتها معهم، تمدّدَت على سريرها دقائق وغابت في نومها.

البداية....

"إن روح الروائيين مسكونة، بل مملوكة بشخصياتهم، مثلما تكون روح قروية متطيرة مسكونة بالمسيح -مريم- يوسف، أو كما روح مجنونة بالشيطان".

نانسي هوستن

(الفصل الثاني عشر)

احتضنَت والدها مرة أخيرة ثم أخاها، جلسَت على الأريكة تقاوم دمعاتها، قالت الأم:

- عام وسيمر، ويُنهي أخوكِ دراسة الثانوية ويُلمّ شملنا من جديد إن شاء الله.

- إن شاء الله.

نظرَت الأم إلى "سحر" وهي تقاوم انزلاق دمعاتها، ثم قالت في خبث:

- لم تفعلي ذلك، ولم أرَ لكِ دمعة تُذرف عندما تركتُكِ وسافرتُ أنا، تحبين أباك أكثر مني؟

ابتسمت "سحر"، ثم قالت:

- تلك المدة التي قضيتُها مع أبي وحيدة أرَتْني كيف يتعب هذا الرجل من أجلنا.

- وأنا لا أتعب؟

- أنتِ الخير والبركة يا أمي.

- كلام.

- لا والله حقيقة.

- حسنًا يا حبيبتي، سأذهب أنا لأنام الآن.

- وأنا كذلك يا أمي.

دلفَت إلى غرفتها ثم جلسَت على سريرها، جسدٌ تشكل إلى جانبها ثم قال:

- أنتِ الآن مُعرّاة تمامًا، كورقة جافة تتلاعَب بها الريح.

- "نورس"، اغرُب عن وجهي.

أمسكَها من رقبتها، ثم بدأ يضغط وهو يقول:

- من أنتِ حتى تعطيني الأوامر هاه؟ من أنتِ؟

جحظَت عيناها وهو مستمر بالضغط، أزال يده، مالَت على الأرض تسعل بقوة، همت أن تصرخ ولكنه باغتها بوضع يده على فمها:

- لا صراخ هاه! صراخ يعني دخول شخص آخر إلى الغرفة، يعني اختفائي، يعني أنكِ مجنونة.

أزال يده؛ فنظرت إليه وقالت:

- ما.. ماذا تريد؟

- حياتك.

- حـ.. حياتي؟

- نعم حياتك.

صوت "رامس" من خلفها يجيب، التفتَتْ إليه فأردف:

- أريد لكِ أقل قدرٍ من المعاناة، قفزة من الطابق الخامس وينتهي الأمر، تعرفين طرق "نورس"، حتى أنّكِ جربتِ لتوك إحداها، لا أريد استخدامها معك.

- ر.. "رامس" هل تعِي ما تقول؟

تشكل "فهاد" إلى جانب "رامس"، ثم قال:

- هو يعي ما يقول، وهذا هو سبب ظهورنا الذي كنتِ تستعجلين بمعرفته.

- ول.. لكن لماذا؟

قال "رامس" بحزم:

- لأنه حياتنا مقابل حياتك.

مربعا ذراعيه أمام صدره تكلم "نورس":

- عندما تُفكّ الحبال يجب أن تسيل الدماء.

أمسك "فهاد" بيديها وكمّم فمها، اتجه "نورس" إليها ثم تناول كوبها الموضوع على الكومود وكسره، تناول قطعة زجاج كبيرة تلاعب بها قليلا ثم شقّ سترتها التي كانت تغطّي رقبتها، وقال:

- ماذا نرسمُ لها يا شباب؟

ظهرت "رُبا" من خلفه، ثم وضعت يدها على كتفه وقالت بسخرية:

- ارسم وردة.

- لكِ ذلك.

صرخات مكتومة تمنعها يد "فهاد" الغليظة، قال "نورس":

- لقد انتهيت، يمكنكِ تأمّلها أمام المرآة.

اختفوا من حولها، كادت أن تطلق صرخة، ولكنها تمالكت نفسها، اتّجهَت إلى خزانة الملابس وعلى المرآة تفقّدَت نفسها، تحت رقبتها وردة تسيل منها الدماء، تناولَت رداء الصلاة ثم ارتدته على عجل، هاتفَت "مازن":

- "مازن"، أين أنت؟

- في المنزل، لقد عـ..

- أريد رؤيتَك حالًا، الآن فورًا على عَجَل، سأنتظرك في الطابق الخامس.

- سأتنا...

- لا تتناول، قلت الآن يا "مازن".

أنهت المكالمة قبل أن يأتيها ردّه، غادرت غرفتها وصعدت الدرج، دقائق حتى رأته يدلف عابس الوجه.

- ماذا هناك؟

فتحَت زرّي الرداء، ثم قالت:

- ماذا ترى؟

- ما هذا الجرح؟

- "مازن"، إن شخصياتي تظهر.

- نعم!

جلس إلى جانبها يستمع لها، انتهَت من الكلام فساد صمت لثوان، ثم قال:

- لِمَ لم تخبريني؟

- ليس الوقت وقت إجراء حسابات الآن.

- ماذا كانوا يفعلون معكِ؟ ماذا يقولون؟

- كنت أذهب معهم لأرى مشاهد الرواية، أحيانًا كثيرة نجلس سويًا نتحدث.. نأكل، ثم...

- ثم؟

- بدأت أحاديثهم وتصرفاتهم تصبح أعنف، يذكرون الموت والانتحار، وأخيرًا فعلوا بي هذا، وطلبوا مني الانتحار صراحة.

- التاريخ الدقيق لأول ظهور لهم كان؟

- لا أتذكر.

- أووووه "سحر"، هذا لا يُعقل.

- تعرف أنّني لا أتذكر التواريخ أبدًا!

- حاولي.

- حسنًا، كان أول يوم في العطلة، يوم ظهور النتيجة.

- "سحر" يا إلهي! هذا منذ أكثر من شهر؟

- حقًا؟ كل هذا الوقت لم أشعر!

- هل أنتِ معتوهة؟ كيف صبرتِ على نفسك كل هذا؟ كيف عشتِ كل هذه المدة؟

استمرّ الصمت دقائق، قطعه "مازن":

- ما هذا يا "سحر"؟

- أنا من يسأل يا "مازن".

ظل ينظر إليها لبرهة، ثم قال:

- خيالات أشخاص تريد الأذية، شخصيات ليس لها وجود، ألَا يناسب هذا الفُصام؟ schizophrenia?

- لا لا لا يا "مازن"، لستُ مجنونة.. إنهم حقيقة، أقسم لكَ أن عقلي يعمل كأكفأ ما يكون.

- من قال أنكِ مجنونة؟

- أنت!

- أنا لم أقل هذا، أنتِ مريضة.

- لستُ مريضة، هذه الجروح أكبر دليل على وجودهم.

- أنتِ من فعلتِها بنفسك.

- تعلم أنني أبعد ما يكون عن أذية نفسي.

- كنت تؤذينها ولا تعلمين، عقلكِ يُريكِ أن "نورس" يفعل هذا، بينما في الحقيقة أنتِ من يفعل.

- لا لا.. أي شيء إلا هذا، لستُ مجنونة.

صرخ بها:

- لستِ مجنونة! إنه مرض، مرض كأي مرض ويحتاج إلى علاج، اعتبرِي نفسك مصابة بجرثومة المعدة، المهم أنك تحتاجين إلى علاج.

- علاج عقلي؟

- نفسيّ عقليّ.. المسمى لا يهم.

- قلتُ لكَ إنني لستُ مريضة.

- بم تفسرين وجودهم إذًا؟

- حقيقة! لقد عشتُ معهم ولمستُ برودة أجسادهم.

صرخ بها:

- هذا لأنكِ مريضة يا غبية.

- لستُ مريضة، عليك اللعنة.

ساد صمت متوتر، ظلّ يحدق بها، ثم أمسكها من كتفيها وبدأ يهزها بقوة ويقول:

- لستِ المتحكمة الوحيدة في هذا الأمر، هل تسمعين؟ الأمر خطير وليس وقت استهتاركِ الآن.

- هي حياتي، حيااتي... هل تفهم؟

- نحن جزء منها، ولن أسمح لك بتضييع نفسك.

- "مازن"، اغرب عن وجهي، اغرب عليك اللعنة.

- حسنًا يا "سحر" حسنًا، فقط لأن الأمر يحتاج نقاشًا وحالتك لا تسمح بذلك.

تركها، لم تعد تسمع سوى هديل الحمام مع صياح الدجاجات يتشاجرن حول الطعام، نزلَت الدرج ثم دلفت إلى الشقة، وجدت "مازن" يجلس وحيدا أمام التلفاز، أشاحت بوجهها عندما نظر إليها ودخلت غرفتها، تردّدَت قبل أن تُغلِق الباب، يدٌ أغلقته بالنيابة عنها.

- ستكون مناقشة هادفة هذه المرة، يحصل بها الجميع على ما يريده، لا أذيّة.. أعدك.

ابتعدت عنه والتصقَت بالجدار، قال:

- "سحر" اهدئي، لقد وعدتك.

اتجه اليها ثم حاول ضمها؛ فدفعَتْهُ بعيدًا عنها وصاحت:

- ابتعد عني يا "غيث".

- اهدئي اهدئي، كل شيء سيكون بخير، سأجيبُكِ على كل الأسئلة، لكن عدِيني أولًا.

- لا وعود لكَ عندي.

قال كأنه لم يسمعها:

- عديني بأنكِ ستنفذين ما نريد.

- أقتل نفسي!

- بل وهبُنَا الحياة.

- و.. وهبكم الحياة!

- بانتحارك سننال الجزء الناقص من أرواحنا، لن نصبح مجرد أفكار محبوسة في سطور، سنصبح بشرًا لنا قوة وتحكّم، سيعود لنا النصف الناقص من أرواحنا الذي ننال به الحياة.

- أنا! بموتي أنا؟

- راعي الدقة.. بانتحارك، يجب أن تقتلِي نفسك، لا موت طبيعي ولا أحد آخر يقتلك، أنتِ تقومين بذلك.

- هذا جنون... لن أفعل هذا.

- "سحر"، نستطيع دفعكِ لفعل هذا.

- "غيث"، أنت تحبني، كيف تفعل بي هذا؟

- لم أحبكِ يومًا، كان ذلك استدراجًا، الفترة الماضية كنا نستدرجكِ لدفعك للهاوية، نستنزف روحك، نجعلك تألفِين وجودنا وتؤمنين به، أنا لم أحبّك ولن أحبّك، بل أقترب كثيرًا من كرهكِ، لماذا يا "سحر" صنعتِني

الأقبح والأفقر؟ لماذا؟، حُرم من تعليمه وحنان أبيه، وضعتِني بين مجموعة أصدقاء أنا أقل من فيهم، ونهايتي.. نهايتي مقتول برصاصة في الرأس.

صمت قليلًا، ثم قال:

- صحيح أنني أشفق عليكِ، ولكن لا خيار لدي.. حياتي مقابل حياتك، أرجو أن تفعلي ما نريد باكرًا، وإلا فإنهم لا ينوون لكِ الرحمة.

قال كلمته الأخيرة ثم طُرق الباب، ظهر وجه "مازن" مقطبًا يحمل كوبين من العصير، هرولت إليه ثم قالت:

- "مازن"! لقد كان يقف هنا خلف الباب.

ثم طوّقَت بذراعها رقبته واحتضنته بقوة وهي تقول:

- إنهم لا ينوون الرحمة.

(الفصل الثالث عشر)

سماء خضراء تتسع فوقها شمس بيضاء تضيء المكان بضوء دافئ، ضحكات تتعالى، تخرج من الأفواه لتطير في الأفق على هيئة "هاهاها"، شعرُها كما حلمَت أن يكون.. بني اللون يصل إلى فوق ركبتها بقليل، تركض تتمايل فوق أرضٍ ذات عشب أرجواني، "رامس" يلحق بها ثم يبتسم "ها قد أمسكتُك"، عيناها الواسعتان تضيقان حتى كادت أن تختفي بين وجنتيها، "رامس" يسحبها من ذراعها وهو يقول "سأريكِ سرًا، شاطئ يلهو مع رمال حمراء، مدٌّ يلقي بأسماك القرش على الرمال"، يسير "رامس" وهي خلفه حتى وصل إلى سمكة وبجانبها دفتر، دفترها الذي كتبَت به رواياتها الثلاث، مهترئ الجوانب باهت الأوراق، الْتقَطَ الدفتر وقدمه إليها.

"سحر".. "سحر".. صوتٌ دوّى فارتجت مياه البحر، "ثحل استيقظي"، فاستيقظَت غارقة في العرق.

- أمي تقول الإفطار.

قالت "أفنان" تلك الكلمات ثم خرجت، فركّت "سحر" عينيها ثم ترجّلَت من فوق سريرها تخطو باتجاه باب الغرفة.

- "ثحر" "ثحر" أختي.

ركضَت "أبرار" باتجاهها ثم احتضنَت ساقيها، صغيرة شعرها مجدل وعيناها العسليتان تشعّان ذكاءً وخبثًا، دلفَت "سحر" إلى دورة المياه، فتحَت صنبور الماء وغسلت وجهها، ثم نظرت خلال المرآة، "مُناي" خلفها تبتسم، استدارت "سحر" بسرعة.

- صباح الخير "سحر".

- "مُناي"، ماذا تريدين؟

- ألسنا أصدقاء؟ ردّي تحيتي، لا تخافي لن أؤذيك.

- ماذا تريدين؟

- تعلمين ما أريده.

("سحر" تعالي، لقد وُضع الطعام) صوت والدتها، همّت أن تخرج، فوقفت "مُناي" أمام الباب، ثم قالت:

- لن تخرجي قبل أن تسمعيني!

- "مُناي"، أنتِ أقلّهم شرًا وأنانية، ماذا حدث لكِ؟

- وما زلتُ الأقل.

- إذًا ماذا؟

- ماذا! نريد حياتنا يا "سحر"، حريتنا.. أرواحنا.

- ولكنها حياتي "مُناي"، ما تريدون أخذه هو حياتي، ليسَت قطعة حلوى زائدة عن حاجتي حتى أقدّمها لكم.

- نحن نريد أن نحيا مثلك، يكفيكِ ثماني عشرة سنة، تسمّين ما نفعله أنانية وشرًا! إذًا ماذا عنكِ؟ كلانا يدافع عن حياته "سحر"، لا يُمكن تمكين العواطف الآن، عندما يتعلق الأمر بحياتك فلا مجال للإيثار.

طرقات عنيفة على الباب، ثم صوت الأم الغاضب:

- "سحر" هيا، قلتُ الإفطار جاهز.

تلاشت "مُناي"؛ ففتحت "سحر" الباب، وجهُ أمها الحانق:

- سنة لتفتحي الباب؟ هيا للإفطار.

*****

- "ثحر"، لا أريد الصعود إلى السطح.

- ستصعدين معي يا "أبرار"، السطح جميل، ستلعبين به.

حملت "سحر" "أبرار" إكراهًا وصعدت بها، أنزلتها ثم قالت محذرة:

- إن غادرت بدون استئذاني سأوسعكِ ضربًا.

جلست على إحدى المقاعد ثم تصفّحَت هاتفها، صاحت زاجرةً الصغيرةَ التي تخطو باتجاه الدرج:

- "أبرار"، قلتُ سأوسعكِ ضربًا.

- يا "ثحر".. يا "ثحر"، لا أريد الجلوس هنا.

- قليلٌ من الوقت فقط يا حبيبتي، أنا "ثحر" حبيبتك، اسمعي كلامي.

مطّت "أبرار" شفتيها، ثم قالت:

- حسنًا.

- فتاة مطيعة، سأبتاع لكِ كل ما تريدين.

- و"أفنان" لا.

- لماذا؟

- لأنها تضربني.

- حسنًا، الآن اذهبي للّهوِ مع الدجاجات.

رنّ هاتفها فأجابت، صوت "تبارك" المذعور:

- هل حقًا ما كتبته برسائلك؟ "سحر" أنتِ تحتاجين طبيبًا، حالتك تتأخر.

- قولي السلام عليكم في البداية.

- "سحر"، الأمر لا يحتمل مزاحًا.

- "تبارك"، أنا لستُ مريضة.

- أجل أجل، أمي المريضة.

- لا تسخري يا "تبارك".

- صلّي على النبي.

- عليه أفضل الصلاة والسلام.

- لماذا ترفضين عرضَ نفسكِ على طبيب؟

- لأنني لستُ مريضة.

- هل ستخسرين شيئًا؟ جرّبي.

- لا أحد يصدقني، حتى أنتِ يا "تبارك".

- "سحر"! لا تكوني كالأطفال، منذ بداية الأمر وأنتِ تحتاجين إلى طبيب، عنادُكِ هذا هو من أخّر حالتك.

- طريق الطب معقّد وشائك، بالإضافة إلى أنه ليس الحل.. "أبرار"!

صرخت باسم الفتاة ثم نهضت تركض وراءَها، تساءلت "تبارك":

- ماذا هناك؟

- لقد غادرَت السطح، لا أريد أن أبقى وحيدة، سيظهرو..

قبل أن تكمل حروف الكلمة وجدَت "رامس" أمامها على الدرج يبتسم.

- "سحر"؟ ماذا هناك؟

- "تبارك"، إنه أمامي الآن!

ابتسم "رامس"، ثم قال بهمس:

- لن تصدقك!

صوت "تبارك" المذعور:

- اهربي، اركضي.

- إنه يمنعني.. يقف أمامي.

صدر صوت من الهاتف، "مكالمة فيديو واردة"، ضغطت قبول ثم وجهت الكاميرا باتجاه "رامس"، ابتسم "رامس"، ثم أشار بسبابته أن "لا".

- "سحر"! أنا لا أرى شيئًا، فقط الدرج.

مد "رامس" يده باتجاه الهاتف الموجه له وأنهى المكالمة، ركضت "سحر" مبتعدة للخلف.

- ابتعد عني.

قال وهو يصعد الدرجات:

- هل تظنينني جان؟

- ابتعد عني يا "رامس".

- "سحر"، ركضُك لا يُفيد، أستطيع إمساكَكِ إن أردت، فلو تغاضينا عن بعض إمكاناتي الخارقة فسأبقى أقوى منك في الإمكانات العادية.

صوت رنين الهاتف، ثم صوت رسائل متتالية.

- هل تظنين عدم بقائكِ وحيدة يحميك من وجودنا؟ سيحدث أن تختلي بنفسك، ووقتها ستجديننا أمامك، ثم ربما نظهر أمام الناس ونجعلكِ بمظهر المجنونة.. من يدري؟ افعلي ذلك الآن "سحر"، حافظي على مظهرك ووقتنا، بدلًا من أن تفعليها لاحقًا ولقب مجنونة معروف عنك.

- "رامس"، أنتَ لستَ هكذا! لم أضع في صفاتك هذا القدر من السوء.

- هذا القدْر من السوء؟! أنتِ لم تضعي بي إلا السوء.

- أنت تنتقم؟!

- لا أنتقم! أنا أطلب حياتي.

- "رامس"، إن هذا بالطبع لا يرضيك، إحراق قلب أمي وأبي عليّ.

- رغم أنك أحرقتِ قلبي في عشرات المشاهد، ولكن هذا لا يُرضيني.. الفكرة أننا لا نمتلك حلًّا آخر.

- لـ.. لماذا أنتم؟ لماذا شخصيات الروايتين السابقتين لم يأتيا؟ ولماذا أنتم فقط دونًا عن بقية شخصيات قصتكم؟

- تتساقط من ذاكرتك المواقف التي لا تحبّينها كعادتك، تذكري في المقهى دورة المياه، الفتاة التي...

قطبت جبينها تتذكر مع كلماته، ثم صاحت:

- "منى"!

- نعم.. كانت "منى"، قررَت هي بدء الأمر ونحن نكمله، ورقة الحياة التي كتبتها في بداية روايتنا منحَت لنا قوة مادية عليكِ، نستطيع إيذاءك، ورقة الحياة سمحَت لنا بمرور غير محدود إلى عالمك، البقية العادية يسمح لهم بمرور واحد فقط، هل تذكرين ماذا قلتِ قبل الشروع في كتابتها؟

هزّت رأسها أي نعم؛ فأردف:

- بسم الله نبدأ حياة جديدة، أنتِ بدأتِ حياتنا.

- وأنا سأنهيها.

- لا سبيل لإنهائها.. لا سبيل.

تشكل "نورس" إلى جانبه، ثم قال:

- ولا فائدة أيضًا من استعطافنا، ما رأيك أن نمرح قليلًا؟

صاح "رامس":

- "نورس"، لا.. أجّل الأذية.

- "رامس"، اترك أمرَها لي، سأجعلها تستسلم في غضون دقائق.

- قلتُ لا.. ليس هذه المرة.

- لا! هل نسيتَ ما فعلَته بك؟! لم تتوانَ عن تعذيبك نفسيًا طوال الأحداث، جعلَتكَ شخصًا جبانًا ضعيفًا.

- وهل نسيت ما فعلتُه أنت بي؟

- هي من جعلتني أفعل! نحن عرائس بيدها تحرّكنا كيف تشاء، أفِق من سباتك.. هذه الفتاة يجب أن تنتهي.

تشكل "فهاد" إلى جانب "نورس"، ثم قال:

- "رامس"، تذكر لماذا ظهرنا.

- أنا لم أنس حتى أتذكر، كل ما أطلبه هو تأجيل أساليبكم قليلًا.

قال "نورس" وهو يبتسم:

- لن تكون أذية كبيرة، "فهاد" أخبِرْني ماذا يزعج الفتيات؟

- تشويه الوجه.. قص الشعر.

- أعلم أمرًا أكثر إزعاجًا خاصة مع شخصية مثل كاتبتنا، ولكن للأسف لسنا بكامل قوانا، وإلا صار موقفكِ عسيرًا مع ستة رجال.

اقترب منها "نورس" بخطوات بطيئة بعد جملته، فقالت بصوت مرتجف:

- "رامس"، امنعه بالله عليك.

قال "رامس":

- هل ستفعلين ما نريد؟

صمتَت؛ فقال "نورس":

- جاوبي.. لماذا السكوت؟ "فهاد"، قيّدها.

اختفى "رامس" من أمامها، قيّدَها "فهاد" ثم أخرج "نورس" مقصًا من جيبه، لوَّح به أمام وجهها، قال "فهاد":

- "نورس"، أستطيع سماع أفكارها وهي تسب والديك.

- وأنا استمعتُ إلى الجزء الذي تلعن فيه نفسها والكتابة، لا بأس لا بأس.. سيعجبكِ شعركِ بعد قصه، على الأقل ستتخلصين من هذه

المكنسة السوداء.. تؤ تؤ تؤ كفّي عن سبي، لن يكون من الجيد لكِ أن أغضب.

بعض الصرخات المكتومة صدرت منها منعتها يد "فهاد"، تركاها ووقفا بعدما أصبح شعرها بالكاد يصل إلى أذنيها، صاحت والدموع على خدها:

- أيها الوغدان يا أولاد الـ...

- "سحر"! مع من تتحدثين؟

قالتها والدتها وهي تظهر على الدرج، ثم اتسعَت عيناها وهي تقول:

- ماذا فعلتِ بشعرك؟

- لستُ أنا!

- ماذا؟! أليس هذا المقص هو الخاص بالمطبخ؟

ثم صاحت بها:

- تكلمي!

نظرَت "سحر" إلى والدتها، ثم مشَت مغادرة، أمسكتها والدتها من يدها، وبصوت اخترق طبلة أذنها صاحت:

- ردّي عليّ، لماذا فعلتِ هذا بشعرك؟!

- أمي، من فضلك اتركيني.

- لن أتركِكِ قبل أن أعرف.

صاحت بحدة:

- قلتُ اتركيني وشأني!

- جيد جدًا، أصبح صوتك يرتفع عليّ أيضًا، أقسم بالله إنني لن أتركِكِ قبل أن أعرف.

- أمي!

ثم أردفَت وهي تضغط على أسنانها:

- اتركيني.

صفعة انهالَت على خدها؛ فصاحت:

- تريدين أن تعرفي؟ حسنًا.. ابنتُكِ جُنّت تمامًا، ترى أشخاصًا ليس لهم وجود ويصرون على أذيتها، هل ستركينني الآن؟

تغيرت ملامح الأم الحانقة، ثم قالت بعد صمتٍ دام لثوان:

- "سحر"، ما هذا الذي تقولينه؟

- هذه هي الحقيقة، وهُم من قصوا لي شعري.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. جان! هذه أعمال الجان، أنتِ ممسوسة، هي "أم عليّ" منذ نجاحك وهي...

- أمي! ليس هذا الهراء.

سحبتها من ذراعها على الدرج وهي تستعيذ وتُبَسْمل.

- يجب أن أبخّركِ إلى حين يراكِ شيخ.

(الفصل الرابع عشر)

- أمي، لن أخرج لهذا المعتوه الذي في الخارج.

- أي معتوه يا قليلة الأدب؟! إنه الشيخ "مسعود"، شيخ موثوق.

- بالله شيخٌ أم دجال؟

- "سحر"، هي كلمة واحدة.. ارتدي ملابسك واخرجي.

- سأخرج، وإن ثبتَ لي أنه دجال قسمًا بخالقي لن أدعه يخرج بكرامته.

قالت الأم وهي تغادر الغرفة:

- ارتدي شيئًا محتشمًا.

- كل ملابسي محتشمة.

- الشيخ يجلس في غرفة الضيوف الخارجية أسرعي.

ارتدت ملابسها ثم خرجت، دلفَت الغرفة وتفحّصَت الرجل بعينين حانقتين، رجل يرتدي جلبابًا أنيقًا ويحرك حبات مسبحته في انتظام، "مظهره غير مريب"، هكذا همست فكرة داخل رأسها، جلسَت إلى جانب والدتها على الأريكة المقابلة لمقعد الرجل، أخرج من جيبه زجاجة ثم تناول كأسًا فارغًا من على المنضدة وصب فيه السائل حتى امتلأ الكأس إلى ربعه، سائل أصفر اللون يرسل إشارات المغص إلى البطن، مدّ الكأس إليها، ثم قال وهو ينظر أرضًا:

- تناولي هذا يا ابنتي.

- وما هذا؟

- منقوع أوراق السدر قُرأ عليه سورة البقرة سبع مرات.

- آسفة، لا أتناول شيئًا لا أعلم كنهه، لا يبدو لي كمنقوع أوراق السدر.

- ثقي بي يا ابنتي، أنا هنا لعلاجك.

- تناول منه أنتَ أولًا.

اعتصرت والدتها ذراعها، رفع الرجل إليها عينَين حانقتَين، ثم تظاهر بالبرود وقال:

- لستُ أنا من يحتاج إليه حتى أتناوله.

- ولو كان منقوع أوراق السدر قُرأ عليه القرآن فلا أجد مانعًا أن يتناوله شخص معافًى.

- يبدو أنهم يجعلونكِ أكثر عنادًا، حسنًا.. بسم الله.

رشف رشفة من الكوب ثم قدمه إليها، لفّت الكأس إلى الموضع الذي لم يشرب منه، ثم شربت المحتوى كارهة تغالب شعور القيء.

- والآن تعالي يا ابنتي اجلسي على المقعد المجاور لي حتى أقرأ عليك.

جلست إلى جواره، وضع يده على رأسها، ثم بدأ يهمس بصوت منخفض، قالت معترضة:

- لا.. ارفع صوتكَ من فضلك، أحب سماع القران بالمناسبة.

- لا أقرأ القرآن.

- إذًا ماذا تقرأ؟

- بعض أدعية الرقية.

- أيضًا سأحب سماعها.

قرأ المعوذتين بصوت مرتفع، ثم أزال يده من على رأسها، وقال مخاطبًا والدتها:

- "أم آسر"، أودّ في البداية بعض الخِصَل من شعرها، وأريد ملابس ارتدتها ولم تُغسل، المهم أن يكون بها عرقها.

نهضَت "سحر" من على مقعدها وهي تصيح:

- اخرج من هنا يا ابن النصابة.

صاحت الأم في حرج:

- لا تأخذ كلامها على محمل الجد يا مولانا، لقد سيطروا عليها.

- شششش أمي اصمتي من فضلك! اخرُج أنت من هنا على قدميك سالمًا أفضل من أن تخرج جثة.

نهض الرجل من على مقعده، ثم قال:

- ابنتك أمرُها خطير يا "أم آسر"، ممسوسة من قبيلة جن كاملة.

دفعَتهُ "سحر" بيدها باتجاه الباب حتى خرج، وأصبح يقف على حافة الدرج.

- إن رأيتُ وجهَكَ بالمنزل مرة أخرى فسأقتلك، أستغفر الله، أستغفرُكَ ربي وأتوب إليك.

قالت تلك الكلمات، ثم دلفت الى الشقة وأغلقت الباب وراءها، تاركة والدتها تعتذر للرجل.

- "أبرار"، "أبراااار"، "أفنااان"، لتظهر إحداكما يا معتوهتان.

هرولت "أفنان" خارجة من الغرفة الداخلية ممسكة بدميتها.

- ماذا تريدين؟

حملتها "سحر"، ثم دلفت إلى غرفتها وأغلقت الباب، أجلسَت "أفنان" على السرير وجعلت وجهها باتجاه الحائط، قالت "أفنان":

- أريد أن أخرج، ستفسد "أبرار" ترتيب ألعابي.

- لن تفسدها.

- ماذا تفعلين؟

- لا تلتفتي! أرتدِي ملابسي.

- إلى أين ستذهبين؟

- سأبتاع لك الحلوى وأنا قادمة.

فُتح الباب ليظهر وجه والدتها المحمرّ من فرط الحنق، ارتدَت "سحر" تنورتها بسرعة، قالت دون أن تنظر إلى أمها:

- هل قبّلتِ يديه حتى لا يسخَطَنِي إلى شمبانزي؟

توجّهَت إليها الأم، ثم صفعتها وصاحت:

- يمكن أن يسبّب ما فعلتِه دمارك أيتها الحمقاء.

- دماري! أنتِ من سيسبّب الدمار، دجال يا أمي! دجال! تُدخِلين بيتنا دجالًا! ماذا سيفعل أبي عندما يعلم أن دجالًا قد دخل بيته، أبي المعلم الجليل الذي ترك بيته لامرأة متزنة مؤمنة بالله، هل لديكِ أدنى فكرة عن عقاب من يصدّق الدجالين؟ إنه الكفر يا أمي.. الكفر.

- إنه شيخ.

- شيخ يهمس بكلمات لا معنى لها ويطلب خصلات شعر وملابس امتزج بها العرق! اتقِ الله يا أمي.

قالت ذلك ثم تناولت حجابها ولفته بعشوائية، أمسكَت حقيبة ظهرها السوداء ودسّت فيها محفظة النقود إلى جانب دفتر رواياتها الذي لا تذهب إلى مكان من دونه، غادرت الغرفة ثم الشقة مسرعة بعد أن تملّصَت من والدتها بصعوبة، ضغطات على هاتفها حتى آتاها صوته فقالت:

- "مازن"، أريد مقابلتك.. أين أنت؟

- أنا بالمنزل أجـ..

- اترك كل شيء وتعال إليّ حالًا، أنا أنتظرك أمام الدكان، بسرعة.. بسرعة.

أنهت المكالمة قبل أن يجيب، دقائق حتى ظهر أمامها، قالت:

- "مازن"، أحتاج أن أتكلم، خذني إلى أي مكان، ولكن ليس أحد المنزلين.

- أبدّل ملابسي في البداية؟ أنتِ ترين ما أرتدي.

- ليس الوقت وقت هذا الهراء.

*****

فنجان من القهوة وكوب عصير ليمون وُضعا على الطاولة، نادلٌ يرمقهما في شك، قال "مازن" وقد لاح شبح ابتسامة على فمه:

- انظري إلى هذا النادل، يظننا عاشقَين، لا يعلم أن هناك من يوشك على فقدان عقله هنا هههههه.

نظرة حانقة من عينيها جعلته يبتلع ضحكته.

- آسف.. حقًا آسف، كنت أمزح.

- أنت تمتلك المزاج الرائق للمزاح وأنا حياتي تتدمّر، أمي تظنّني ممسوسة وتجلب لي الدجالين، وأنت.. وهذا الكابوس.

قالت تلك الكلمات، ثم تجمعت الدموع بعينيها حتى لم تستطع حبسها، نظر إليها "مازن" مطوّلًا، ثم أمسك يدها اليمنى وقال:

- أنا بجانبك.

- أعلم، ولكنني خائفة.

- هذا طبيعي في موقفك هذا، الخوف أمر ضروري، إذا لم تخافي معناها أنكِ غير طبيعية، انظري.. لا بد أن النادل يظن أنني وغدٌ أحاول تركِكِ وأنتِ تبكين لاستمالتي.

ابتسمت، ثم سحبَت يدها وسحبت منديلًا جفّفَت به دموعها ومسحت سيلان أنفها، قال "مازن" وهو يراقب نظرات النادل المتشكّكة:

- رائع.. لابد أنه الآن توقّع عودة المياه لمجاريها.

- "مازن"!

- قلبُ "مازن"! هاهاها سأجعله يصدق أننا عاشقان.

- هل يمكن أن تخرس قليلًا؟

- حسنًا.

- الآن أريد أن نتحدث بجدية.

- "سحر"، هل لنا أن نترك هذا الأمر جانبًا الآن؟ امنحي عقلك بعض الدقائق الهادئة، بعض الدقائق من الحوار المريح، اجعلِيه يشعر أن كل شيء على ما يرام، لنتحاور عن أي شيء.. طفولتنا.. ذكرياتنا.. ورق العنب.. البثور التي تملأ وجهكِ.. أي شيء، ارتاحي قليلًا.

نظرت إليه طويلًا ولم تجب.

- تصبح عيناك جميلتَين عندما تنظرين إلى أحدهم هكذا، لا يوجد وغدٌ على سطح الأرض يستحق أن يحظَى بعينيكِ له وحده.

ابتسمت ابتسامة واسعة حتى بدت غمازتيها بوضوح، صفّق "مازن" بيديه وهو يقول:

- هيييي جعلتكِ أخيرًا تضحكين.

- "مازن" يا مختل، الناس تنظر إلينا.

- لا بد أن النادل اقتنع أنني عرضتُ عليك الزواج وأنتِ قبلتِي.

- يا أخي، الله يخرب بيت هذا النادل الذي أشغلنا.

- "سحر"!

- نعم؟

- سأعترف الآن بشيء لم تعلميه عنّي مسبقًا.

قالت متسائلة بوجه استعاد مرحه:

- زلّة جديدة؟

- نعم.

فركت يدَيها سويًا، ثم قالت:

- رائع.. كلّي آذانٌ صاغية.

- أنتِ إحدى نقاط ضعفي.

- ماذا؟

- ربما لا أمتلك الكثير من نقاط الضعف؛ لأنني شخص غير مبالٍ، ولكن على مستوى الأشخاص فأنتِ تقعين ضمن دائرة الأمان بالنسبة لي.

رشف من قهوته ثم أكمل:

- هل تعلمين؟ منذ مدة أحببتُ فتاة، لن أقول أنه كان لهوًا؛ لأن في وقتها كانت مشاعري صادقة، ارتبطنا بعلاقة حدودها أنا وهي فقط.

همّت "سحر" أن تتحدث، ولكنه استبقها.

- أعلم رأيكِ في هذه العلاقات، أعلمه تمامًا.. فقط دعيني أُكمل، أحبَبتُها كثيرًا ورسمتُ لها عشرات الرسمات، تعرفين.. أقصى درجات تعبيري عن المحبة هي الرسم، كانت تشبه أمي.. دفء صوتها وطريقة حديثها، حتى ملامحها تحمل طابع أمي، تعلمين.. هذه العلاقات لا تكتمل، أكاد أقول إن تركها لي دمرني يا "سحر"، أعلم أنكِ ترين كلامي مبالغة، ولكن تركَهَا لي كان السبب الأساسي في تجزئتي لامتحانات الثانوية العامة، ربما لأني وضعتُها في مكانة مقاربة لأمي؟

- ربما، وهذا خطأ.

- لقد دخلَت دائرتي الأمانية، بل وأصبحَت مركزها، عندما تركتني اهتزّت ثقتي بالجميع، قررتُ ألا يكون لي دائرة أمان، لم أكن أريد أن يتكرر الألم، بدأتُ بك وبأمي أقرب شخصَين لي، ساءت علاقتي مع أمي كثيرًا،

وأنتِ هل تذكرين تلك الفترة؟ التي انقطعتُ فيها عن محادثتِك تمامًا؟ حتى رسائلك توقفتُ عن الرد عليها؟

- أذكر.. كنتَ مجنونًا بتلك الفترة.

- المهم أنني في النهاية تداركتُ نفسي وأعدت التفكير في كل شيء، عدت للدراسة بشكل أقوى، وكما تعلمين..

صمتَ ثوان، ثم قال:

- هل تصدقين؟ حتى تلك الرسالة التي كتبتِها لي ونحن أطفال أحرقتُها.

صرخَت:

- ماذا! أحرقْتَ عقد الصداقة؟

قال كأنما لم يسمعها:

- ولكنني احتفظتُ بالرماد داخل صندوق الرسالة.

ابتسم ثم أردف:

- لا أعلم كيف كنتُ أفكر، أحرقتُ الرسالة حتى أتخلص من ضعفي واحتفظتُ بالرماد!

رشف من قهوته عدة رشفات، ثم قال:

- الحقيقة ليس عهد الصداقة فقط، بل أحرقتُ معظم هداياك لي والرسمات التي رسمناها سويًا في طفولتنا، بل وتخلصت من الألعاب.

صمت لثوان، لاحظَ نظراتها إليه فقال:

- "سحر"، أرجو أن غضبكِ سيراعِي أننا في مكان عام.

استمرّت تنظر إليه؛ فقال من جديد:

- ولكنني احتفظتُ برماد الرسالة.. قلت ذلك، صحيح؟ هذا يعني أنكِ عزيزة على قلبي، لم أستطِع التخلص من عهد صداقتنا.

صمتَ "مازن"، وهي مستمرة في النظر إليه، ازداد معدل تنفسها، لاحظ "مازن" ذلك؛ فأدرك أنها تحاول السيطرة على نفسها، عندما لا يمكنها الانفجار تزيد عدد مرات الشهيق وتزفر من فمها، أمسك بفنجان قهوته حتى يكمله فوجد به القليل، حرك الفنجان حركات دائرية متتالية ثم رشف المتبقي، استمر الصمت حتى قطعه "مازن":

- في النهاية فشلتُ في التخلص منكِ، واتضح لي أنني كنتُ حمارًا، وأنه ليس من السيئ أن يكون لدي دائرة أمان، بل عليّ اختيار من سيدخل إليها.

- أنت حيوان!

- انسِي الأمر.

- أتساءل من هي الفتاة؟ لا بد أنها بشعة، أعرف ذوقك.

- قلت إنها تشبه أمي.

- آسفة، لكن هل تظن أمكَ جميلة؟

- على الأقل هي أجمل من...

- هاهاها لا تستطيع الكذب.

- لم أستطع الإكمال لأن أمكِ هي أمي أيضًا، وأنا أحترمها وأقدّرها، ولكن أستطيع إهانتكِ أنتِ على فكرة.

- صحيح "مازن".. ما سبب إرضاع أمي لك؟ إلى الآن لا أعلم ما السبب في أن تتناول حليبي.

- وأنا أيضًا لا أعلم، ثم أنتِ أيضًا كنت تفعلين ذلك.

- لا لا لا، أخبرتني أمي أن والدتك لم تقُم بإرضاعي قط.

- ربما بسبب عمل أمي! من المؤكد أنها كانت تتركني عندكم وتذهب لعملها.

- حسنًا، هناك حليب صناعي و..

- "سحر"، لقد مر على الأمر ثماني عشرة سنة، من السخافة أن نناقشه الآن.

نظر إلى ساعته، ثم قال:

- كم معكِ من المال؟

- دعني أرَ.. حسنًا أربعمئة وبعض العملات الفضية.

- هذا يكفي، ادفعِي أنتِ الفاتورة وأنا سأخرج لإجراء اتصال، سأعيد لكِ ثمن القهوة لاحقًا لأنكِ جعلتِني أخرج بلا مال.

- طوال عمره فضلِي يغمره والآن يتحدث عن ثمن فنجان قهوة.

تترجل درجات المقهى المعدنية، طريق السيارات السريع ومياه الترعة الزرقاء ترسل فتنتها عبر السور الحديدي، يقف "مازن" بالأسفل يضع هاتفه على أذنه، شعرُه المبعثر قاتم السواد يتحرك مع الهواء المثار بفعل السيارات.

- الحجز باسم "سحر عبد الكريم"، الساعة الخامسة والنصف؟ هل يمكن تقديمه قليلًا؟ حسنًا لا بأس.. شكرًا.

أنهى المكالمة، التفَتَ فوجدها وراءه.

- حجز باسمي؟

- طبيب.

- أوه.. لا "مازن"، كيف...

- عليكِ أن تستمعي إليّ هذه المرة.

قالت وهي تخطو مبتعدة:

- لستُ طفلة حتى...

أمسكها من معصمها بقوة حتى آلمها، ثم قال وهو يضغط على حروفه:

- عليكِ أن تستمعي لي هذه المرة.

ثم قال وقد تبدّلت نظرته إلى الوهن:

- أنتِ إحدى نقاط ضعفي.

أزالت يده من على معصمها وتحسّسته بألم، نظرت إليه ثم قالت:

- وأنا لا نقاط ضعف لديّ!

استدارت مغادرة؛ فأتاها صوته:

- من أجلي يا "سحر"، من أ جل والديك وإخوتك، كلنا نحبك، كلنا لا نريد لكِ السوء.

ثوان مضت وهي واقفة مكانها، استدارَت له ثم قالت:

- هل تظن أن ذلك سيُجدِي نفعًا؟

- سيُجدِي بإذن الله.. سيجدي.

(الفصل الخامس عشر)

عيادة اكتست جدرانها باللون الزهري، بعض اللوحات الإرشادية هنا وهناك، "د. زينب طلعت أخصائية الأمراض النفسية والعصبية عضو..."، جلسَت "سحر" تقرأ اللافتة وإلى جانبها جلس "مازن"، همس:

- اخترتها سيدة لترتاحي في الحديث أكثر، لن أدخل معكِ وسأنتظركِ هنا حتى تخرجي.

- عليكَ العودة.

- لا لن أعود، أنا هنا لأقدّم الدعم.

كعادة الوقت عندما يعلم أن هناك من ينتظر مروره يمر ببطء شديد، مرّرَت "سحر" عينَيها بين الجالسين مرارًا، أفراد يخرجون من غرفة الطبيبة ليُنادَى اسم غيرهم، نظرَت أرضًا، عقلها يعمل ليؤلف عشرات السيناريوهات حول مقابلة الطبيبة، عشرات الأسئلة تُلقَى من قِبل الطبيبة وقبل أن تجيب ينتقل عقلها إلى سؤال آخر، شكل الطبيبة طويلة ترتدي بنطالًا أزرق، قصيرة ترتدي عوينات سميكة، شكل غرفتها، ألوان طلاء الجدران، "سحر عبد الكريم"، صوت أخرجها من قلب غرفة الطبيبة التي كانت تتخيلها، رفعَت عينَيها ثم نهضت، لم تتجه إلى باب غرفة الطبيبة، بل إلى المخرج!

*****

صعدَت الدرجات بسرعة، قلبها يتواثب داخل صدرها، تحاول الهروب من أفكارها التي تصر على تعذيبها وتكرار المشهد مرارا، طرقت الباب عدة طرقات خفيفة، انفتح الباب ليظهر وجهها الأسمر الجذاب، غُطّيَ سواد شعرها بحجابها الذي أُلقِيَ بإهمال على رأسها استعدادًا لفتح

الباب، عيون واسعة بنية اللون ورثهما "مازن" تمامًا، شفتان صغيرتان اتسعتا ليُظهرا صفّين من الأسنان، قالت المرأة وهي تحتضنها بصدق:

- دكتور "سحر" شخصيًا، ما هذا النور؟

- خالة "أماني"، اشتقتُ إليكِ.

دلفَت إلى الشقة التي تحفظها تمامًا، جدار كبير عُلّقَت عليه شاشة التلفاز وفوقه صورة كبيرة لرجل أربعيني وُضع على جانبها العلويّ شريطة سوداء، على الجدار المقابل وُضِعَت عدة صور لـ"مازن" في مختلف مراحله العمرية، جلست "سحر" على الأريكة ثم قالت:

- أنا جائعة.

- دعكِ من الجوع الآن، أخبريني ماذا فعلتِ مع الشيخ "مسعود"؟

- خالة "أماني"، أرجوكِ لا أريد التحدث عن الأمر، أخبريني هل لديكِ طعام أم أنصرف؟

- لديّ الطعام الذي تحبين.

نهضَت "أماني" ثم اتجهت إلى المطبخ، أخرجَت "سحر" من حقيبتها الدفتر ثم وضعته أمامها، قلّبَت صفحاته حتى وصلت إلى أولى صفحات روايتها الأخيرة، ورقة كاملة خُطَّت عليها أسماءَهم داخل عشرة مربعات، تخرج من كل مربع أسهم وتحته كُتِبَت كلمات وأرقام، غيّرَت الصفحات سريعًا، ثم توقّفَت أمام مشهد..

- لقد وجدتُها، كم المدة؟ ثلاث سنوات.. أليس كذلك؟

ردّ من دون أن يلتفِت إليها:

- مع كلّ ما أتظاهر به من القوة، لم أستطع أن ألفظها في وجهك.

ابتسمت "مُناي"، ثم دارت ابتسامتها على خجل كعادتها وقالت:

- أسلوب الرسالة ركيك جدًا، لستَ جيدًا في أحاديث العشاق.

- لستُ جيدًا في اصطناع المشاعر وتذويق الكلمات، ترينَ الرسالة ركيكة؛ هذا لأنها صادقة، ما شعرتُ به كتبته، عندما يكتب الرجل رسالة قوية حد الإبهار اعلمي أنه فكّر في الكلمات كثيرًا جدًا حتى كتبها، الأحاسيس الصادقة لا تخرج قوية على الورق.

- هناك سؤال يطرح نفسه الآن.. والنهاية يا "رامس"؟

- لا أمتلك الإجابة.

- سأعرض خياراتي.. الارتباط إلى الأبد، أو الابتعاد إلى الأبد.

- ماذا عن الأول؟

- تعلم أنني لن أحتمل يا "رامس"، ارتباط يعني زواج، أولاد وحياة، كيف تبني حياة جديدة بجذور فاسدة؟

- لماذا تهرّبتُ من الحقيقة ثلاث سنوات كاملة يا "مُناي" برأيك؟

- ولماذا تعترف بها الآن؟

- أنا جبان وضعيف، لكن هل إن اخترتُكِ ستسيرين معي؟

- لنصحّح صيغة السؤال، هل تعِدُنِي أنت بالسير؟

- ستكونين بجانبي؟ ستعينني على التغيير؟

- أريد منكَ وعدًا يا "رامس".

- أنا من يريد وعدَكِ، أريد أن أشعر أنّ هناك مصدرًا أستمد منه القوة.

- ستسير إلى النهاية؟

- وأنتِ بجانبي؟

- نعم.

- ولكن "مُناي".. أنا خائف.

- ما الذي يخيف؟

- أنتِ يا "مُناي".. أنتِ، أنتِ أكبر أحلامي وأكبر مخاوفي، أنتِ الهالة المقدسة التي أخشى اختراقها، أخشى أن أعذّبكِ معي ثم لا أصِل.

- "رامس"، أنت متذبذب، والمرء لا يصل إلى أحلامه هكذا، طوال عمري لم أحب الأمور المعلقة، أريد كلمتك الآن.

- لستُ مستعدًا لقولها.

- لماذا صارحتَنِي إذًا؟

- لأن الكتمان مؤلم.

أغلقت "سحر" الدفتر ثم غطت عينيها تخفي انسياب الدموع، تذكّرت ما حدث بالعيادة، كانت تتهرّب من تلك الفكرة، فتحت الدفتر من جديد وعلى ورقة فارغة خطّت ما حدث، كأنه مشهد خيالي صنعته أفكارها.

((رفعَت عينَيها، وقبل أن تنهض تشكّلوا أمامها، اتسعَت عيناها وهي ترى ظهورهم فردًا وراء الآخر حتى أصبحوا صفًّا منتظمًا أمامها، يد "فهاد" على فمها تمنعها من الصراخ، صفعةٌ من "رُبا" على خدها، أنهَضُوهَا بالقوة، يجبرونها على التحرك إلى المخرج، "مازن" يركض وراءَها يمسكها من يدها، وهو يقول: ("سحر" إلى أين؟ إنه دورك)، يد "نورس" تزيل يده في غلظة، الدرج ثم باب الشارع، "مازن" يحاول منعها، "نورس" يدفعه بقوة، "مازن" يسقط أرضًا، سيارة أجرة، يدها تحت تصرفهم، تشير للسيارة تقف، صوت السائق الغليظ إلى أين يا أستاذة؟))

*****

انتهت من الكتابة، فصلت الورقة من الدفتر ثم قرأتها مرارًا بيدين ترتجفان، "ما معنى هذا؟، لقد ظهروا بين بشر! لم أكن وحيدة! هل رآهم الجميع؟"، فتحَت الدفتر من جديد على الصفحة التي تجمع أسماءَهم..

- ما تفعلونه كثير، كثير جدًا.

صوت مفاتيح "مازن" تفتح الباب، ظهرَ وجهُه المكفهر، ما إن رآها حتى قال:

- نحتاج إلى الحديث، ليس هنا وليس الآن، عندما أتصل بك تأتين، يجب أن نهدأ.

خرج ثم أغلق الباب، أغلقَت "سحر" الدفتر ومسحت وجهها، ثم خطت نحو المطبخ.

*****

بعد أن أتاها اتصاله صعدت الدرج نحو الطابق الخامس، وجدته يفترش الأرض، اتجهت إليه ثم قالت:

- هل رأيتهم؟ لقد ظهروا أمام الجميع!

- رأيت من؟!

- شخصياتي! هم من أجبروني على المغادرة.

- "سحر"! أنتِ من نزلتِ بكامل إرادتك.

مدت له الورقة:

- لقد وصفتُ المشهد هنا.

قرأ الورقة ثم كوّرها بين يديه.

- حالتكِ تتأخر، في البداية شخصيات مسالمة تظهر لكِ وأنت وحيدة، ثم تريد أذيّتك، ثم تظهر أمام الناس.

- أنتَ ما زلتَ موقن أنهم مرض؟

- "سحر"، فكّري بعقلكِ قليلًا، أنتِ في خطر.

- أنا في خطر حقيقي.

- حقيقي لا أختلف معكِ طبعًا، يجب أن نعالج السبب.

- والسبب ليس في عقلي.

مسح وجهه بكفه، ثم قال:

- ليكن.. سأسير معكِ في الطريق الذي تريدين، ما خطتك؟

- سأدافع عن حياتي، لن أنهيها بيدي حتى أهوى في جهنم وتستمتع شخصيات غبية بحياتهم التي صنعتها أنا.

- هل ستقدرين؟ "سحر"، إنهم حسب كلامك يستطيعون أذيّتك جسديا؟

- سأتحمل حتى أجدَ الحل.

- إلى متى؟ أعطِني مدة ستجدين خلالها الحل.

- لا أعلم.

- أعطني مدة الآن.. يومًا يومين.. أسبوعا.. عاما، تكلمي.

- أسبوعين.

- أسبوعان يا "سحر"، وبعدها إذا لم تنته المشكلة؟

- سأطيعُكَ وقتها، ولكن فقط ابقَ بجانبي لا تتركني.

- أنا هنا من أجلك، لن أتركك.. سنتخطّى الأمر سويًا، أعدك.

*****

دلفَت إلى غرفتها فوجدتهم جميعًا يجلسون على السريرين، قال "نورس" وهو ينهض ويسير باتجاهها:

- مرحبًا!

- ابتعد عني.

- وإذا لم أفعل؟

- هل تظنون أنني لقمة سهلة؟ هاه؟ لن تحصلوا على مرادكم.

حملها "نورس" من كتفيها ورفعها إلى الأعلى، ثم صاح:

- أنتِ لا تعلمين ما أنتِ بصدده.

ألقاها على الأرض فسقطت كورقة تلهو بها الريح.

- كم وزنكِ يا "سحر"؟ أظنكِ لا تتعدين الثلاثين كيلو جرامًا.

قال "فهاد" بهدوء:

- أنا لا أفهم لماذا تصرين على التشبث بهذه الحياة؟ ما المُبهج في حياتكِ الروتينية المملة؟ أَليسَت النهاية هي الموت؟ لماذا لا نعجّلها قليلًا؟

- ولماذا تريد أنتَ العودة لها إذا كانت النهاية هي الموت؟

نهضت "إيلاف" من مكانها، ثم اتجهت لـ"سحر"، تأملَتْها ثم قالت:

- وجه جميل، ولكن هناك بعض العيوب مثل هذه الشامة القبيحة على خدكِ الأيسر، "نورس" ناولني شيئًا يصلح.

ناولها سكينا، قال "سمير":

- هذه الفتاة التي أمامكم جلدها ثخين، لن تستجيب بهذه الطريقة.

صرخة أطلقتها "سحر" و"إيلاف" تقرب السكين من وجهها، فقال "نورس":

- اصرخِي كما شئتِ يا فتاتي، كما شئتِ.. لن يسمعك أحد.

نظرت "سحر" إلى بقيتهم الجالسين، الجميع يتأملها بصمت، صاح "سمير":

- "إيلاف" توقفي!

- لماذا؟!

- فقط قلتُ توقفي.

تحرك مقبض الباب ثم فُتح، ظهر وجه "أبرار" الناعس، الْتفَتَت "سحر" إليهم فوجدتهم باقون لم يختفوا، قالت "أبرار":

- "سحر"، أمي لم تعُد حتى الآن؟

نظر "نورس" إلى الفتاة، ثم قال:

- ما رأيك؟

أمسك "سحر" من ذراعِها، ثم جرها على الأرضية.

- آه.. "أبرار" اركضي من هنا.

وقفت "أبرار" حائرة أمام أختها التي تُجرّ من يد خفية، ثم قالت:

- لماذا؟! ماذا بك؟

أمسك "نورس" يد "سحر"، قاومته مرارًا وحاولت التملص.

- اتركني، أرجوك يا "نورس" لا، إنها أختي.

أغلق "فهاد" الباب ووقف أمامه، أمسك بقدم "سحر" ثم ركل بها "أبرار" فسقطَت أرضًا، وجّه "نورس" يدها باتجاه وجه أختها الساقطة، يدها تغطي وجه أختها بالكامل والفتاة تحاول التملص، قوة "نورس" لن تُغلب من فتاة لم تتجاوز عامها الخامس، صاحت سحر:

- لا يا "نورس" لا بالله، سأفعل ما تريدون، سأفعل ما تريدون، إنها أختي، يا رب لا.

تساقطت الدموع من عينيها وهي ترى مقاومة أختها تضعف شيئًا فشيئًا حتى توقفَت عن التنفس، تركها "نورس" ثم ابتعد واستند إلى خزانة الملابس عاقدًا ذراعيه يستمتع بمشاهدتها تحتضن أختها وتبكي.

- "أبرار" لا لا لا، ليس أنتِ بالله ليس أنتِ، يا رب يا رب، والله لم أكن أنا.

قال "نورس" في برود وهو يتأمل أظافر يده:

- فتاة مجنونة.. قتلَت أختها وتدّعِي أنها ترى أشخاصًا لا وجود لهم، يا حرام!

- يا "أبرار"، بالله افتحي عينيك، يا رب، لماذا يا "نورس" حرام والله حرام.

جلس "فهاد" على السرير، ثم قال:

- هذا أقل شيء يمكننا فعله.

قال "سمير":

- "سحر"، يمكننا جعلكِ تحرقين المنزل ليلًا، يمكننا جعلكِ تقتلين والدتك، ولسخريةِ الحظ لا نستطيع أن نجعلكِ تقتلين نفسك، يجب أن يصدر الأمر برغبتك المطلقة حتى نحصل على أرواحنا.

قالت بوهن:

- يا "أبرار" يا أختي، ليتني كنتُ أنا والله، يا ليتني كنت أنا.

ثم أردفَت بصياح:

- يا "أبراااار" انهضي.

طرقات خفيفة على الباب، وجهُ "أبرار" الناعس يبرز، تقول معترضة:

- "ثحر"، صوتكِ أيقظني.

نظرَت "سحر" إليها بعينين مدهوشتين يملؤهما الدمع، ثم عادت تنظر بين يديها فلم تجد أحدًا، ركضَت إلى أختها تضمها بقوة.

- ماذا بكِ يا "ثحر"؟ لماذا تبكين؟

- لا شيء لا شيء يا حبيبتي، اركضي أنتِ إلى الداخل، لا تخرجي أبدًا وأغلقي الباب، هيا بسرعة بسرعة.

ركضَت الفتاة وأغلقت "سحر" وراءَها الباب، قال "سمير":

- هذه المرة كان تحذيرًا، ربما في المرة القادمة تكون أختك حقًا، أنتِ لا تحتملِين أي أذى يلحق بأسرتك، وسبب عدم موافقتك الأساسي -الذي

لم تقوليه بشكل واضح قط- هو أنك لا تريدين حرق قلب والديك، ولكن "سحر" فكّري معي.. الأفضل أن يظنوا أنكِ سقطتِ من الطابق الخامس ويحزنون عليك قليلًا، أم ينتهي الأمر بجثتيهما أمامك؟ أو ينتهي الأمر وقلبهم يتفطر على ابنتهم المجنونة التي تتلقّى العلاج في إحدى المصحات وينتهي بها الأمر منتحرة؟

اتجه لها "رامس"، ثم قال:

- هل صدقتِ الآن؟ نحن نريد لكِ أقلّ قدر من الخسائر يا "سحر"، تعالِي معي.

حملها بين ذراعيه، غادر الغرفة ثم الشقة وهم وراءه، صعد إلى الطابق الخامس ثم أنزلها أرضًا وأضاء المصباح، قالت "مُناي":

- هيا يا "سحر"، من أجل أسرتك.

نظرت إليهم جميعًا بعينين دامعتين، مدّ لها "رامس" يده يساعدها على الوقوف على السور، وضعَت قدمها اليمني.

- "سحررررررر".

صوت يصيح من خلفها.

(الفصل السادس عشر)

- لا أحد يصدقني، أمي تحلف أغلظَ الأيمان أني ممسوسة، في الفترة الماضية جلبَت لي قرابة العشرين دجالًا لم أعد أناقشها، أصبحتُ أجلس معهم وأتناول منقوع أوراق المسكسك المخلوط بدماء لا أعلم ماذا، و"مازن" و"تبارك" أقرب أصدقائي وضعاني في خانة المجانين، دائما أتساءَل عن تلك المحاولة ماذا لو لم يأتِ "مازن" في اللحظة المناسبة؟ لا أعلم ماذا سأفعل.. الدراسة تقترب والخوف يغمرني، كل محاولاتي للتخلص منهم فشلت مزقتُ الرواية عشرات المرات وفي كل مرة تعود سليمة، المرة الأخيرة كانت قبل أن آتي إلى هنا وأعلم أنني سأعود لأجدها بلا ضرر.

مسحت دمعة انسابت على خدها ثم سألت الطبيبة التي تلقاها لمرتها الأولى:

- هل تصدقينني أنتِ؟

هزت الطبيبة رأسها مع ابتسامة دافئة، أردفت "سحر":

- أحلامي تمتلئ بهم وبتفاصيل حياتهم، كأنهم.. كأنهم يعيشون داخل رأسي يستلذّون بتعذيبي، أشعر بهم داخل خلاياي، أصبحتُ أرى أمي وأبي في أبشع الكوابيس؛ دماء تغطيهم وأحيانًا أجسادهم محترقة، لم أعد أقوى على الجلوس لوحدي و"مازن" أصبح يجلس إلى جانبي معظم وقته، لا أعلم كيف تمر إختباراته ولا أجرؤ على سؤاله لأنه سيكذب، حتمًا سيخبرني أن كل شيء يسير على ما يرام ولكن كيف له أن يسير على ما يرام وهو يقضي معظم وقته معي ولا يستذكر بسببي؟ هناك صوت دائم يهمس لي من دهاليز عقلي "النار تُبِيد، النار تحرق، النار تُفنِي" حتى أنني وقفت كثيرًا أمام الموقد وتساءلت هل هذه النار كفيلة بإطفاء نيران أفكاري إذا سمحتُ لها أن تشب في جسدي وعقلي؟، أنا تعبت ولم أعد أحتمل.

عادت إلى منزلها برفقة "مازن"، قبل أن يصعد الدرج أوقفته قائلة:

- "مازن"، لا أريد الصعود، سأجلس في الطابق الأرضي.

- كما تريدين، أصبحتِ شبه مقيمة به أصلًا.

دلفا الى الشقة، جلسَت على الأريكة وتأملت الدفتر السليم الملقى أرضًا ثم تمددت، قال "مازن" بحماس محاولًا إضفاء بعض البهجة:

- صحيح.. لم تخبريني عن رأيكِ في السكن الذي اتخذته للدراسة، لماذا لم تخبريني حتى آتي معكم؟ ألستُ أخاكِ أنا؟ تذهبين مع عمك وأنا موجود.

- لولا إلحاح عمي ما ذهبت، أنا لن أكمل هذه السنة.

- يا ستير يا رب، متشائمة كعادتك، المهم صِفِي لي الغرفة.

- غرفة واسعة.. سريران متوازيان تفصل بينهما مساحة كبيرة، وخلف كل سرير خزانة خشبية، جيدة على كل حال، هذه الغرفة هي التي سأنتحر بها، أَرَتْنِي "منى" ذلك!

- أستغفر الله.. ياربي، أجلس مع غراب أنا! تفاءَلي قليلًا.

- سأضغط زر التفاؤل.. تحت أمرك.

- هل تريدين بعض الشاي؟

- أريد كوبًا كبيرًا.

تركها ودلف إلى المطبخ، أسندت رأسها إلى مسند الأريكة، ثم أغمضت عينيها:

- حلمي تحطم واختفى، والعزم في قلبي غفا، والدمع من عيني يسقط مرهفًا، أملي تحطّمَ في الصخور، والحزن أضحى بي يدور، واليأس يكتب نفسه بين السطور، الخوف قيّدَ أضلعي، لم يبقَ لي شخص معي، وشعرت همسًا خاف...

توقفَت وفتحَت عينَيها على اتساعهما، "النار تبيد، النار تحرق" "لا وجود لكم سوى في دفتري" "ومنه عدنا" "ورقة الحياة منحت لنا قوة مادية عليك" "بسم الله نبدأ حياة جديدة" "أنتِ بدأتِ حياتنا" " وأنا سأنهيها"، "موعد الطبيبة اليوم لم يكن معكِ الدفتر، الموعد السابق كان معك" "يرتبط ظهورهم بوجوده"، نهضَت ثم أمسكت بالدفتر المُلقى أرضًا.

- الدفتر! ورقة الحياة، "ماااازن".. "ماااازن"، الدفتر النار تبيد.

تشكّلوا أمامها، نظرات الحنق تبدو في أعينهم حتى صارت أعينهم بلون الدم، قيّدها "فهاد" وكمّم فمها "نورس" وهو يصفعها، هرول "مازن" من المطبخ:

- ماذا هناك؟

يراها تتلوّى، تحاول التملص من شيء لا يراه، تشير بعينيها إلى الدفتر الملقى أرضًا، زاغت عيناه بينها وبين الدفتر، كلماتها تهمس في عقله "الدفتر.. ورقة الحياة.. النار تبيد"، تناول الدفتر من على الأرض وركض إلى المطبخ، نَزع أوراقه من السلك المعدني الذي يربطها سويًا، ألقاهم في كومة على الأرض، ثم "كليك" النار تهب في الكومة الورقية، تفترسُها بلا رحمة، "سحر" ملقاة على الأرض في الخارج تحيط وجهها بذراعيها، تتلقّى الركلات من أقدامهم، توقّفَت الركلات، فتحَت عينَيها ببطء فرأت حروف زرقاء تحترق، لحظات واختفى كل شيء، نهضَت وهرولت الى المطبخ.

- "مازن" "مازن" لقد..

المطبخ فارغ، فقط رماد الأوراق وومضات نارية تحاول الحياة، سلكُ دفترِها وغلافه الكرتوني القوي ملقَى إلى جانب القداحة أرضا ، غادرَت

الشقة، صعدَت الدرجات سريعًا تتحامل على نفسها وتقاوم آلام جسدها، دقات سريعة على الباب، وجهُ أمِّها يظهر.

- أمي، أين "مازن"؟

وجه أمها الحزين:

- "مازن"! "مازن"! شفاكِ الله يا ابنتي.. تعالِي تعالي.

تملّصَت منها ثم وثبَت الدرجات متجاهلة آلامها ونداء والدتها لها، خرجَت من المنزل إلى المنزل المجاور، صعدت الدرجات ثم دقت الباب، وجه "أماني" الأسمر يظهر، دلفَت ثم قالت وهي في منتصف الصالة:

- خالة "أماني" هل رأيتِ "ما...

رفعت عينَيها إلى الجدار فوق شاشة التلفاز، صورة الرجل الأربعيني على جانبها العلوي شريطة سوداء، إلى جانبها صورة "مازن" يكتسي جانبها بالشريطة السوداء؛ اتسعت عيناها تتذكر..

((أم "مازن" تلطم خديها، تشق ثيابها، والدة "سحر" تحتضن "أماني"، والدها يحثّها على الصبر ويحذرها من عقاب النائحة، "حادث سيارة"، "يا ولدي يا فلذة كبدي، ذهب الأب وتبعه ابنه، من لي سواك يا ضيّ عيني"، صوت والداها يقاوم الدموع ("أم مازن"، أستغفر الله، لكِ الله)، ترى نفسها تتكوّم على سريرها تبكي بصوت مكتوم تحتضن دفترًا ألصقت على غلافه صورة "مازن"))

تجمّعَت دمعتان في عينيها، قالت بصوت مرتجف وعيناها متعلقة بالصورة:

- خالتي!

التفتَت المرأة إلى الصورة، ثم قالت:

- كانت يجب أن تُعلّق هنا منذ يوم وفاته يا بنتي، لكنني لم أمتلك الجرأة.

- هل هل غرفته...

- كما هي لم أغيرها، حتى ملابسه لم تخرج من الخزانة.

- هل أستطيع أنا أن..

أشارت إلى نفسها ثم أشارت إلى الغرفة، فقالت "أماني":

- بالطبع يا "سحر".. تفضلي.

دلفَت إلى الغرفة، جلسَت على كرسي مكتبه، على الجدار علّقَت صور مرسومة بالرصاص، صورة تجمع أم "مازن" وأبيه ثم صورة أمها، تليها صورتها وبعدها صورة فتاة حسناء الى جانبها صور عشرات الفتيان، تذكرته يقول:

- "سحر" رسمتك!

- أنت لا تكف عن الرسم، إلى متى سأخبرك؟ كل مصور في النار.

- الله يغفر، المهم ما رأيك؟

- متقنة كعادتك.

- أريدك أن تكتبيني كما أرسمك!

- لا أظن أنك شخصية يتحمس المرؤ لكتابتها.

أسندَت كفها إلى رأسها تستحضر في ذاكرتها الآف الصور، دفتر يحمل صورة "مازن" كتبت فيه قصة الرفيق الذي توفى، ترى عينيها الباكية وهي تضع الدفتر في إحدى أدراجه ثم تهمس "على روحك السلام يا أخي"، فتحت أحد الأدراج بعنف ثم أخرجت الدفتر، وصرخت:

- "مااااززززرن"! اعلم أنك تسمعني اظهر.

لم تتلق إجابة، تتسارع أنفاسها وهي تلتفت في كل اتجاه تنتظر ظهوره، جدران الغرفة البيضاء التي علقت عليها عشرات الصور تتأملها في صمت، أعين الرسومات تنظر لها في تشفٍ، صرخت من جديد حتى شعرت باهتزاز الجدران لصوتها.

- "مااااززززن"! اظهر هذا ليس عدلا.

صوت طرقات على الباب وصوت "أماني" القلق يتساءل ماذا هناك، ركضت "سحر" إلى الباب توصده بالمفتاح متجاهلة الطرقات، جلست على سريره ثم قالت من بين دموعها:

- "مازن" يا أخي اظهر.. اظهر أنا احتاجك، أنت لم تحترق، ورقة حياتك بيدي في هذا الدفتر.

فتحت الدفتر على أولى صفحاته ثم أشارت لاسمه بأصبع مرتجف:

- هذه ورقة حياتك يا "مازن"، أنت حي.. حي، اظهر ليس من العدل أن أتحمل ألم فقدانك مرتين.

شعرت بصوته يهمس داخل عقلها، يخبرها أنه لن يظهر وأن مهمته انتهت، يخبرها أنه فكرتها الأقوى التي كانت تحرسها، يخبرها أن "مازن" الحقيقي توفي وأن عليها دفن شخصيته أيضا، قالت بوهن:

- أنت فكرتي الأقوى.. أنت حارسي.. كيف أدفنك؟ أنت شخصيتي الحقيقة التي ارتبطت بروحي واكتسبت قواها من هذه العلاقة، اظهر بالله اظهر.

ثوان مرت تدور عيناها بالغرفة، فصاحت:

- اظهر عليك اللعنة!

تنتظر ظهور وجهه أمامها، تنتظر سماع صوته في عقلها، نهضت من على السرير تحمل الدفتر بيدها ثم قالت وهي تفتح باب الغرفة..

- أنا سأجعلك تظهر يا "مازن".. أنا سأجعلك تظهر.

ظهر وجه "أماني" القلق ما إن فتحت الباب، حاولت منع "سحر" من الخروج ولكن "سحر" دفعتها بعيدًا حتى كادت تسقط، دلفت إلى منزلها، تصعد الدرجات باتجاه الطابق الخامس، تقف في منتصف الطابق، تصرخ أن اظهر، تسبه بأفظع الألفاظ، وضعت قدمها اليمنى على سور الشرفة.

- سأفعلها يا "مازن"سأفعلها إن لم تظهر.

صوته يظهر بعد غياب، يهمس داخل عقلها، "افعليها يا سحر، افعليها"

- أقسم أنني سأفعلها.

- افعليها!

صوته هذه المرة أتاها مسموعًا، ليس همس إحدى الأفكار داخل عقلها التفتت تبحث عن وجوده فلم ترَ أحدًا، أكمل صوته المسموع:

- أنا لست إلا إحدى أفكارك، اكتسبت قوتي منك.. من وصفك لي، من علاقتك القوية بأخيك، لم تصلْ أي شخصية من شخصياتك إلى مدى قوتي، لم تستطِعْ أي شخصية منهم إيذائي، كنت في عالم آخر لا يستطيعون رؤيتي ولا أستطيع رؤيتهم اقتربت كثيرًا من الواقع واكتسبت بعض التأثير المادي كذلك، كل ما أعلمه أنني الأقوى وأنتِ سبب قوتي يا "سحر" لذلك لا يجب أن تكوني بهذا الضعف، لا يجب أبدًا، إذا كنت تريدين فعلها فلتفعليها الآن، ولكن تذكري أنه لا سبب يدفعك إلى ذلك الآن سوى ضعفك وعدم تقبلك للواقع.

- "مازن" أنا أتألم يا أخي، لماذا لم تخبرني أنك أحدهم؟ لماذا؟

- قوتي كمنت في إيمانك بحقيقتي، أنا من جعلتك تنسين كل شيء عن الحقيقة.

قالت بدموع تزداد:

- أنت وغد

- افعليها يا "سحر".

ظلت دقائق ثابتة، تنتظر ظهوره أو سماع صوته أو همسه داخل عقلها، لا شيء سوى الصمت التام، لم يكن عقلها يومًا بهذا الصمت، نقلت قدمها التي كانت على سور الشرفة إلى الأرضية، خطت باتجاه الدرج ثم ترجلته ببطء نحو الطابق الأول، دلفت باتجاه المطبخ الذي يتناثر على أرضيته رماد دفترها العتيق، أمسكت القداحة الملقاة أرضا ثم نظرت إلى الدفتر الذي بيمينها، كليك اشتعلت النار تفترس الأوراق بلا رحمة، قبل أن يصل اللهيب إلى يديها ألقته أرضا، وقالت بملامح جامدة:

- على روحك السلام يا أخي.

*****

"تمت بفضل الله"

كتبتُ هذه الكلمات الثلاث في بداية الصفحة البيضاء الفارغة ثم مكثتُ ثوانٍ أنظرُ إلى المؤشر الذي يظهر كل ثانية بانتظار أن أكتب المزيد، وراء شاشة حاسوبي رأيت حروف زرقاء تأتي من اللامكان، تشكل أمامي ثم جلس على المقعد المقابل لي، فقلت بنفاد صبر:

- "رامس"! هي مش الحكاية خلصت خلاص؟

- تؤ تؤ تؤ الحكاية انتهت بالنسبة لـ"سحر" ولكنها ستبدأ بالنسبة لك!

أغلقت شاشة حاسوبي ونهضت من مكاني استعدادًا للقادم، يبدو أنه سيكون هناك الكثير من العمل.. الكثير.